A. U. B. LIBRARY

297.63
H968nA
V.1
C.1

النبي محمد

صلى الله عليه وسلم

بقلم صاحب الفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ محمد حسين الأزهري
من كبار علماء الأزهر الشريف

١٠٤

الجزء الأول

١٩٤٧

مطبعة الاعتماد بمصر

AMERICAN UNIVERSITY
LIBRARY
OF BEIRUT

بسم الله الرحمن الرحيم

وعليه فليتوكل المؤمنون ، والصلاة والسلام على أفضل المرسلين ، والحمد لله الذى هدانا سبلنا ، وبعد فلقد أتم والدى الأستاذ الجليل محمد حسين الأزهرى من كبار علماء الأزهر الشريف وكان تلميذا لفقيد الاسلام الشيخ محمد عبده رحمه الله — تأليف هذا الكتاب ، وكان على وشك الطبع ، فللأسف الشديد اختطفته يد المنون وكل نفس ذائقة الموت ، فوفقنى ربى إلى أن أهدى لقرائى الكرام كنزاً من كنوز الاسلام وما توفيقى إلا بالله ، ولقد سمحت لى الظروف وانتهزت هذه الفرصة وبدأت فى طبع كتاب « النبى محمد » لأجدد الاسلام فى النفوس ، وأحيى ذكر والدى رحمة الله عليه وأدخله فسيح جناته ، فأرجو أن أنال الرضا وأكون على وفق فى هذا العمل الجليل وفقنا الله جميعاً لما فيه ذكرى لأمواتنا وتشجيعاً للاسلام ولخدمة الدين آمين ؟

دريه حسين

الفاتحة

بسم الله الرحمن الرحيم

أحمد الله وأشكره . وأشهد أن لا إله إلا هو الأول الآخر ، الباطن الظاهر . وأشهد أن محمداً عبده ورسوله نبي الرحمة . وهادى الأمة . صلى الله عليه كما يقتضى وحتى يرتضى . وعلى آله وأصحابه . وأنصاره . وأحبابه ومن تبعهم باحسان . إلى آخر الزمان .

مقدمة المؤلف

كلمة المؤلف

لجماعة المستشرقين ومن تبعهم مذاهب متنوعة فى الحكم على تاريخ النبى محمد ، وغيرهم يرى أنهم كالناظر من قفا معمعان حرب لا يبصر سوى من لفظه المعترك فخرج هاجاً يتنجى بالفرار .

وفى السواد الشرقى واخص منه سواد الأحداث فى مصر نفر وصف بسعة الاطلاع ، بلغ به البحث الى تصويب رأى أولئك المستشرقين .

قد يكون لما نعت به هذا الحدث من الاطلاع نصيب من صحة . وإنما اكتفاؤه بالوقفة فى مستوى علم المستشرقين يساق منه دليل على أنه تشبع برأى الغربى فقاده الى كراهية العربى قبل أن يطلع على أسرار كتب العرب ، أو كأن اطلاعه عليها مجرد اطلاع غير مغنٍ ، وما جهل أن العلم يفيد العلم ولا يفيد العقل وأن التفكير صناعة .

ثم إن الإطلاع الفردى إذا خالف فى النتيجة إجماع جماهير العقلاء ، كان باطلا ، أو على الأقل ناقصا والغناء من البحث عن بعض البحث لا يعول منه على نتيجة .

وغير أولئك ومثلهم فى الرأى منتسب الى العلم شب على تقاليد لم يمرر بها على العقل سيقت اليه قبل أن ينضج بنفسه الاعتدال وحجته فى اعتناق مذهب المستشرقين أن كتب سير النبى محمد عسرة التلخيص بعيدة الاستنتاج.

تاريخ النبى محمد بدء حياة جديدة للبشرية وأولية انقلاب عام لحضارة العالم الإنسانى . والجاهل به لا يوثق فى موضوعه بعلمه ولا يعتد برأيه . ولا يعذر عالم أو منتسب للعلم بالاحتجاج عن الاحاطة . به بتعدد الروايات وشبه تخالف فى الأقاويل .

ولا أحسب باحثاً فى سيرة النبي محمد يغنى عن الأخذ بالصادق لابهذه الروايات المؤيدة بالتواتر وإنما يعى من مفاهيمها بقدر مؤهلاته الطبيعية واستعداده الفطرى فان زاغ فمن نقص طبعه تقصير الطبيعة فيه .

قرأت وفهمت ماتقدم فعجبت أن رأيت من يخالف فيه ثم بدا لى بعد أن المخالف ربما كان له عذر . إذ رأيتنى أنظر من الجهة التى تليني ومن نوع ماوعت نفسى ، وبالقياس عليه يكون مخالفى لا يستطيع أن يودع ذهنه غير ما يتطلب طبعه فأحببت أن أضع نفسى موضع ذلك المخالف لا يبصر بنظارته . فوقفت موقف البعيد عن المعترك وتصفحت ماتسنى من كتب تاريخ النبي محمد . فأثبت ماطال مختصراً أو ملخصاً اعتمادا على ماشهد حسن صدقه . أرويه كتاريخ عظيم . لايخرج عن حد أوضاع الرواة عنه مبتدئاً به قدر ما استطاع التاريخ أن يبلغه . وما يسوغ قبوله عقلا فى الرواية عن أجداد هذا النبى وأول أولئك عدنان بن آزر (أودار) أخو قحطان . وعدنان فى ماروى أشهر الرجال العظماء فى تاريخ العرب . وقد يكون مسبوقاً فى سلسلة نسبه بأعظم منه غير أن وقوف روايات الحفاظ عنده ودورانها حوله . دل على واسع شهرته وعظم مقامه وكرامته . ولا أريد أن أذهب قصياً وراء قحطان وولده . إذ سبيلى تعقب عدنان من حيث إنه أكبر عقده مرئية ونهاية ماوصل إليه الاستقصاء علوا فى عقد نسب النبي محمد . وليس ماابتغى تتبع عدنان فى كل ولده . بل استقراء ماحفظ التاريخ عن كل كبير من ذراريه الذين تداولوا رئاسة الأشراف فى مكة وكانت لهم اليد على البيت فيها وثبت أنهم من أجداد النبي محمد ، أروى ذلك اجمالا ليرى فى ثنايا الحالات العامة من أولئك الأجداد مقادير شرفهم ومراتب نبالتهم . ولأحط المطلع بتاريخ هذا النبي ولا يتمثل إنسانه

وحياته منذ الاولية أكثر ظهوراً من تواريخ عظماء الأرض طراً . فقد كان من أبناء الأمراء وكبار العشائر من أشراف مكة . والذين هم كملوك فى العرب ، وكرؤساء يرجع إلى رأيهم . وكان فى أهله بين طوائف يدور بها سور نطوق من جبال على شكل بلد واحد متوسط المساحة بالنسبة إلى البلاد المتحضرة يشمل اثنتى عشرة عشيرة يقدر مجموعها بنحو عشرين ألف نسمة. يفصل كل عشيرة عن الأخرى درب ضيق العرض يبلغ جميعها صوت المنادى. وكان من خصال العرب شدة التحفظ من السمعة وبها حسنة وسيئة . ولهم عناية خاصة بما يذاع من ذلك عن الكبير والصغير والغنى والفقير . وكانوا أشد فى الشدة على النشء . فلا يعتاد غير الممدوح من الأعمال والمحمود من الأقوال . فكان منهم دائماً رقباء عليهم . ولا يلبث رجل أو امرأة أو غلام يأتى أمراً محدثاً إلا أخذه لسان النقل وسارت به الأخبار وإذا كان هذا بين عمومهم فأولى أن يكون فى خصوصهم . ولأحقٌّ به أن يكون فى الأخص من الكبراء . فان عبد المطلب جد محمد كان كبيراً فى أمراء قريش وشيخاً للعرب كافة . فأقل حدث فى أسرته لا يلبث أن يمسى معروفاً فى كل طبقات مكة وقبائل العرب . وإن موت والده عبد الله وهو فى نحو الثلاثين سنة وفى حين أنه لم يمت من ولد عبد المطلب قبله ولد آخر . وقبل أن يبلغ حظاً فى التمتع بزوجته . وكذلك موته فى أثناء حمل زوجته . هذا يجعل الحزن والتوجع مزيداً على الأمير الشاب ابن الأمير الكبير . ويلفت أنظار قريش وحلفائها الى تعقب شأنه . وإذا كان قد تلا هذا وجود ابن لعبد الله الفتى ووفاة زوجه ووليدها فى سن الطفولة . فلا بد أن يكون هذا داعياً لتوجيه القلوب إلى محمد وباعثاً الى تفقد أحواله . وإذن يكون محمد مرموقاً من الأبصار طبعاً . مطافاً بالبصائر عادة فى غيبته وشهوده

وحركته وسكونه من يوم وفاة أبيه ليس فقط من ساعة وضعه . ولما كان أغلب الذين حوله أميين كانت أخبارهم لا تخلو من تحريف فى الرواية أو فى الزمن أو فى الحال. وهذا الخلاف مصدره الغلط فى النقل أو السهو فى التاريخ أو فى أسماء الأعلام . وهذا لا ينهض بالتغيير فى روح المروى ولا فى جوهر الرواية بما أنه شكلى لا يقف بالتصور عن فهم معناها .

وكان من عادة العرب أن يتوارثوا شرف النسب غير السيادة فى القوم فإن هذه لم تكن عندهم ميراثاً للابناء . ولا فى قدرة الأب أن يوصى بها ولا أن يهبها لكبير أو صغير من ولده . وإنما ينالها من ينالها بحكم اعتراف الجماهير له بالمحامد ولو كان أصغر أبناء السيد أو الأمير . وما اتفقت التواريخ اتفاقها على تفوق محمد عمن عداه بمكارم الأخلاق ومحاسن الطباع وشرف الخصال وبنوع أخص ما اشتهر به من الصدق والأمانة حتى بعث بهما . ثم هو من جهة النسب سيد وشريف باعتبار أنه سلالة أشراف نبلاء .

نهض بالدعوة جهرة وتحت الشمس . فبلغها تدريجياً الأقرب فالقريب والبعيد فالأبعد . ونظر كبار قريش وزعماؤها فى الدعوة إلى اقناع الآخرين الغالطين فى تطبيق الدعوة على محمد مع اعترافهم له بالصدق والأمانة قبل ذلك .

وتعقبت قريش محمداً فى دعوته . فكانوا يعرضون لأيذائه وضر من اتبعه فى النفوس والأسر والأموال . وجعل محمد يخفى دعوته ويحمى الضعاف من أصحابه بالأيواء إلى بيوت الأقوياء منهم وخشية اشتداد الأذى به وبهم اضطر لأن يختار ابعادهم إلى بلاد الحبشة . ومع هذه المضايقات كانت اخباره متتالية ولكن تحت ستر وخفاء لا تسمع إلا متقطعة وبواسطة النقل من أصحابه وأكثر هؤلاء أمى .

النقى فى بشرية بريئة . ويبدو للمفكر والمتردد وخالى الذهن صفاته وأخلاقه وآدابه . فتظهر فيما يمر من ظروف حياته حقيقة وقف فى ناحية منها النقل المظنون وانحرف عنها قصور بعض العقول .

ويتضح بجلاء سر ماخالف طبع النشء والمستشرق والله الموفق

محمد حسين

مقدمة

سكان بلاد الصحارى والمفاوز المتقاطعة الاتصال بالخلاء أكثر صبراً وجلداً وأعظم جدة ، وأشد تمسكا بالعصبية القومية فى كل الأمور ، وميلا بالطبع إلى الاستقلال والحرية وأبعد عن الاكتراث والمبالاة ثم إن سكنى البلاد المكتنفة بالفراغ والبعد عن العمار يزكى الطباع . وينشط الخيال حتى ينهض بالوهم فيحل محل العقل .

ويقرب من هؤلاء فى الحال والشأن أهالى الطبقات الفقيرة فى البلاد المتحضرة والأمصار ، بسبب تأثر نفوسهم باليأس من حياة أحسن ، فمن البدو وفقراء المدن تنشأ عظائم الأمور وكبار المشاكل والانقلابات فى العالم . الا أن نار الأخيرين أبطأ التهاباً وأسرع خموداً بداعى قرب الأيدى الحاكمة منهم فى الرقاب .

وقد كان سكان جزيرة العرب وبلاد الحجاز على النهايات من الخصال المتقدمة فلا تسكن فيهم ثورة الطباع ولا تهمد لهم حركة بجديد مفزع ، سواء فيما بين بعضهم والبعض . أو فيما بينهم ومجاوريهم من أمة أو أمم ، وكانت العرب تأنف الضيم والهوان كل الأنفة وتخشى سوء السمعة أكثر من الموت . ولذلك كانت فيهم أخلاق فضلى وعادات ممدوحة لم تكن فى أمم أخرى .

فى كل مئة سنة تتغير الأوساط بتغير الأحوال فى العالم المستقر . فيضعف القوى ويقوى الضعيف ويرفع الوضيع ويوضع الرفيع ، حتى لقد يصيب هذا التبدل وجه المسكون بالتبعية فيعلو المنحط وينحط العالى . واللغات والآداب والأخلاق حتى الأزياء وغيرها فى الإنسان لاحقة بهذا . تنال من التغير

نصيباً مناسباً تتدلى أو تصعد بحسب ما يحيط أهلها من شدة ورخاء . ولكن بالتدريج فلا يستطاع الحكم بتغير لحاضر تقلبات الحال . ويكذب القول بضبط أول التغيير ما زال يسير معه فى تنزله وتصعده .

وكثير من أصول العادات القديمة فى العرب بقى شكله أعصرا لبقاء مسبباته ، من ذلك :

توارثهم عبادة الأوثان والنجم والشمس والقمر وغير ذلك بمقتضى البساطة فيهم ومستوجبات وجودهم بين خلوات فارغة ووديان جوفاء من شأنها توسيع الخيال فيحار الواحد منهم أن يجد من جنس محسوسيته مما يركن اليه فى تصوره . ولا يرى غير الاستسلام إلى اعتقاد معبود مرئى يجعله واسطة للإله الذى لم يجد له مثالا يرجع اليه فى تصوره وإغارة بعضهم على بعض ونهبهم الأموال وسفكهم الدماء . بناء على أن أراضيهم لم تكن بلاد زرع فكان اعتمادهم على نتاج الماشية والإبل والأنعام . وبعد مسافات ما بين البلاد قطع الاتصال بينهم وأوجد بينهم عدم الثقة فى التداين والتعامل . فدفع بهم حب الاستكثار من أسباب الحياة إلى الاعتناء بالغارات ، وكثرة الغارات فيهم وخوف الفناء أفضى بهم طبعاً إلى التشبث بالاستكثار من الأقارب والجيران احترازا من غارة الأجنبى عليهم وهذا مثار العصبية القومية فيهم .

أما إدمان الخمر عندهم فلازم لخلو البال من المشاغل يساعده وجود فضاء خلا من العاذل واللاحى .

ولقد كان للمرأة فيهم كرامة محدودة . فكانت تؤسر فلا تؤذى ولا يؤخذ عنها فداء . وفى حالة ما تكون أسيرة لا تهان بغير أن تؤدى مثل

ما اعتادت من العمل فى بيت أهلها . فإن كانت غير أسيرة كان قولها مسموعاً ورأيها مطاعاً .

ولم يكن فيما ذكر من عادات ضارة غير السلب والنهب وسفك الدم . وانتصار كل عشيرة للعصبية القومية وتمسكهم بذلك خلف فيهم النخوة الجاهلة . والكبرياء والأنفة والعزة وما إلى ذاك من لواحق كحفظ الذمار واحترام الجار وفعل المروءة والوفاء وإغاثة الملهوف والنجدة ومثل هذه الظاهرات الاجتماعية وغير ذلك ما حمل التاريخ عن العرب إلى ما قبل الإسلام من أن الكثير فى العرب كان يعترف بألوهية الله (مع اشتراك المعبودات) ووجوب حج البيت والختان والإشهاد فى الزواج والطلاق وتفريق الفراش فى وقت الحيض . والغسل من الجنابة وتحريم ذوات المحارم بالقرابة والمصاهرة . وقتل قاطع الطريق — إلى مثل هذا من خلال حميدة — عدا أن تعاملهم بالحق والعدل كان مفقوداً إلا بين من تساوت مقاديرهم فى السيادة والشرف ، وهذان كانا على قدر القوة وعدد الرهط وكثرة الأنصار هذه الخصال من طيبة ورديئة إنما نشأت عن توسيط القوة مع سذاجة الطبع وهى قابلة للتحول والتغير قابلية مصدرها للضعف والزوال ، بضرورة أن هذا المصدر لم يكن مبنياً على اعتقاد وحدة الخالق فى ألوهيته وفى هيمنته على النفوس ذلك الاعتقاد الكافل لثبات المزايا النافعة فى بنى الإنسان ونحو غيرها من ردىء العادات .

وقد دخلت شريعة موسى فى بلاد العرب ، فلم تجد اكتراثاً ولا حفاوة ، لما فيها من خشونة وجفاء ، وخلوها من السماح والسهولة المألوفين للعرب . ثم جاءت شريعة عيسى على التوراة فريدة بإلفات البشرية إلى شديد التعلق بالإله بمغالاة تنفر الطباع من الميل لها ، حتى لقد يئس العقلاء وأهل النظر من أن

يجد نبي فى بلاد العرب إصغاءاً لشريعته ولا سماعاً لرسالته بناء على ما بأدمغتهم من صلابة وفى طباعهم من خشونة .

على أن الصلابة والخشونة فى العرب لا تقل فى عدم قبول الإرشاد عن تردد الرأى واضطراب الفكر وتقلب الأهواء فى بلاد والحضر . ولا بأقل فى توقف العقول عن قبول الهداية من رفاهية العيش وراحة الظل فى الأمصار . وما العهد ببعيد عن معاناة موسى أشد التعب فى بنى اسرائيل وما قاساه فى سبيل هدايتهم وكفرهم بعد الإيمان .

واقرب إلينا عيسى فقد أمضى عمره يطوف البلاد ابتعاداً عن أذى اليهود له . وأخيراً طوى تاريخ نبوته على أنه لم يؤمن معه فوق الثلاثين ، وما ذاك إلا لامتلاء اجواف بنى إسرائيل بالمطاعم وتوزع قلوبهم مع الأهواء وعدم تدبرهم نتيجة ماجاء به حتى الذين صدقوه . وما كانت قريش أكثر عدداً من القبائل غيرها . وإن كانت أشد منعة وحصانة بطبيعة أرض مكة وإنما كان العرب يجلون قريشا لاحتيازها على الكعبة التى لاغنى للعرب عن حجها والتبرك بها . وقد كانت أشد حزبية وأمتن اتحادا وتناصراً من غيرها يضاف إلى هذا أن قريشا كانت متضامنة متكافلة فى التجارة يتجر الواحد للعشرة والمئة منهم . فلا تفرغ لهم تجارة ولا تسكن لهم حركة بمتجر . فوق أن مكة كانت سوقا عاماً للعرب وبنوع أخص فى شهور الحج .

من هذا كانت قريش أحسن حالا وأقل حاجة إلى العرب منهم لها وأكثر اعتدالا فى الأخلاق وأذكى عقولا وأبر فعلا وأبعد عن أفعال الجهالة إلى حد — وأقرب إلى الإنصاف والعدل وبذلك كانت أشرف العرب بما أن الشرف عندهم نفع الناس وتجنب أذاهم ، ولو أن قريشاً أسلمت مع النبي لبسط الإسلام يده على الكعبة ومنع الناس عنها أن لم يؤمنوا . ووقف فى سوق

بجارتهم واضطرهم إلى التسليم بالدعوة من غير غرم ووفر على المسلمين كثيراً من عناء الجهاد ، وسهل لدعوة الإسلام سبيل الإنتشار فى الأمصار .

وكان لقريش علم خاص بأحوال العرب وعاداتها يساق ذلك إليهم عن يد التجار والقصاد فى أيام الحج وقد تذاكروا مراراً فى متحدثهم قبل الإسلام بقليل نقد ما عليه العرب من أمور تخالف العقل : وأجمعوا على وضع مشروع يكفل النصفة والعدالة فى البلاد وأن يجتهدوا لاقناع العرب به .

ظهر محمد من أعلى بيت الكرامة والشرف فيهم ، ناهضاً على الأخلاق الممدوحة منهم فكان موضوع إعجابهم وآية مفخرهم يفضلون به ويحتكمون لعقله ويحترمونه حتى لقد لقبوه بالأمين الصادق .

فلما دعاهم إلى الإيمان بالله وبرسالاته ، أبى الكبار والسادات فيهم حرصاً على الوثنية عادات أسلافهم ، وتجنباً لمقتضيات دين يحكم بنزولهم عن الإمارة الكاذبة والرئاسة الباطلة .

وغير أولئك فريق لا يبالى هذه الامارة وإنما يمنعه قيود الآباء من اعتقاد الوثنية .

وأذاع النبى دعوته بأمر الله فكانت أنفذ إلى الأخيرين ، بما أن العائق لهم لم يكن مادياً . ولكن هذا الفريق كان يخاف مناوأة القوم ، فكان إلى الدين أشبه بالسرقة يقبله تلصصاً وفى خفية .

واعترضه كبار القوم فجهله أصدقاؤه ، وأنكره عارفوه وكذبوه وجادلوه فجادلهم وحاجهم وغلبهم فتعرضوا له بالأذى فى نفسه وذويه . فطلب لهم أن يحايدوه إذا لم يسلموا فلم يرضوا إلا أن يقاوموا رسالته ويذيعوا تكذيبه فكانوا بذلك خصماء لله ولرسوله وأعداء للمؤمنين فأنذروا بحرب من الله .

وبقى النبى معهم فى هوان وضيم حتى ألهم هجرة من آمن معه الى الحبشة . وفرغ قليلا من هم المهاجرين . فكان من بقى معه فى مكة يتعبدون تحت أسقف البيوت وظلمات الغابات المهجورة . وقريش لا تهدأ عن إيذائه ومن يعرفون منه الميل اليه ويكيدون لهم الكيد ويعرضون لهم بالضر .

كل ذلك ما كان ليضعف عزيمة النبى عن المضى فى دعوته فقد أرسل الدين يسير وحده فى الناس ويأخذ دوره . وشرع النبى يعرض نفسه على قبائل العرب حال اجتماعهم للحج بمكة ليجد منهم حماية له ولأصحابه حتى يبلغ رسالته . فلقى أخيراً أهالى المدينة (يثرب) تلك القرية التى وصفها بأنها قرية تأكل القرى .

هذا والنبى يقص عليهم ما يخبر به الناموس الإلهى عما كان وسيكون فيقرون بصدقه وأمانته وينكرون عليه دعوته . ويصفونه بالساحر والشاعر والمجنون وما أتى به أساطير الأولين أكتتبها فهى تملى عليه .

وبدهى أن الطبيعة محدودة القوى ، وإذا استجمعت كل قواها لا يمكنها أن تخرج شيئاً إلى أكثر مما ينبغى له فى تخلقه وما يجوز أن تبلغه فصيلته . فلا تستطيع أن تجعل الإنسان طائراً ولا ترسل البقل نخلا . وإنما هى تسير بالشىء فترسله لأقصى حد له بحيث لا تخرج به عن أمثاله من نوعه .

والنبى أمى لا يقرأ ولا يكتب ولم يكن بمكة غير نفر معدود يجيد الكتابة . وكلهم لا يرضى أن يكون معلماً . والنبى قد شغله ضيق العيش من زمن يتمه أن يجد النفقة على نفسه مدة الانقطاع للتعليم وما ينفح به معلماً . ولو وجد ذلك ماوجد بمكة من يعلمه التشريع وفقه الدين والسياسة والاقتصاد والتاريخ والطب والحكمة والفلسفة وغير ذلك .

فالأمية فى هـذا النبى مانع وأى مانع من أن يبلغ أكثر من نهاية مبلغ الأميين . وقد ثبت أنه فيما يعلم فوق علم المتعلمين فلا يمكن أن يكون قد وصله ذلك النبوغ الملائكى بالطبع . ولا يجد العقل مناصاً من أن يقول أنه محفوف بروح القدس يملى عليه الفصل فى القضايا الحاضرة والحكم فيما سيجرى بعده ويضرب له الأمثال بمن هلك من الأمم عبرة للمستبصرين وذكرى للذاكرين .

ترك النبى مكة مهاجراً إلى المدينة . وأحاط به من المهاجرين والأنصار لفيف رأى أن وجوده فى الحياة ليس إلا أداة لتنفيذ أمر الله ونبيه . فجاهدوا وغزوا فى طاعة الله بكل قلوبهم وقوامهم . ونصروا الدين وأعزوه ورفعوا ألويته وأعلوا مكانته — هـذا والقرآن يطوف بإنبائه عن الماضى وإخباره بالآتى يقص عليـــه العبر بمن هلك من الأمم ويفصل الآيات . والنبى يتلو مايوحى إليه ويفسر منه مالم تقو عليه الأفهام ولا تبلغه الأذهان . ويجادل به ويناضل ويتحدى الفصحاء حتى غلبوا ، وأقروا بأنه الموجز المعجز والذى لاتباريه قوة بشرية — وافترى قوم القول بأن القرآن من لفظ محمد ولا خلاف لدينا فى أنه لفظ محمد إذ يوحى إليه بواسطة الروح الأمين وهو الناموس .

أما ابتكار محمد لمعنى القرآن فيكذبه ماتقدم من أن محمداً متفق على أميته . وإن كان يقرأ فلا يعقل أن يحدث عن المستقبل الذى لم يخلق ، ولا يستطيع . بيان مجهول من الأحكام والعلوم دينية واجتماعية واقتصادية ودأبية .

لو لم يكن محمد أعظم سياسة وأمتن فكرا وأسد رأياً مابلغ مع ذكاء العرب وصلابة رؤوسهم مدى غيره ممن تصدى لإرشاد النـاس . فإنه رتب دعوته وتخير الأقـــوم من طرق الإرشاد . فدعا الناس أولا إلى التشهد لتخلو الأذهان من الاعتقاد فى الأوثان . ثم استمالهم بالتطهير فى أوقات ميل

النفوس إلى النظافة ومس الماء . ولو تركوا عند هذا الحد من الدين لسئموا العمل فيه لمخالفة ذلك لمبادىء اعتادها الأعراب . ولكنه أخذ يتلو عليهم مقالات وشبه رسائل بليغة فى لغة العرب وأخبار شيقة فيها قصص الغابرين للاعتبار . وأنباء تثير النفوس حباً فيما بعد نهاية الحياة الدنيا غير حكم وأمثال وأحكام فى قضايا مرت فيمن تقدم وأخرى هى بين فكى الزمن وفى يدى حدثانه . وفيما بين ذلك منه لاتفرغ فاصلة أو توشك أن تنتهى عبارة من قوله إلا ذكر اسم الإله حتى لاتشغل الناس عن ذكره بطلاوة المنطق وحلاوة المفهوم . فكانوا يتناقلون قوله ويتنافسون فى حفظه ويكثرون فى تلاوته. حتى لقد أحبوا الخلوة له والتفرغ بالفكر فى معناه . فشغلهم التبصر فيه عن كل شىء وغيره .

وإذ كثر عدد المحيطين به من مؤمنى مكة نهض فآخى بينهم واستحلفهم . على التناصر والتعاضد فكانوا كخيوط الناسج لاتقطع حتى توصل ، وشد عقد هذا التآخى بأن ضم الفقير إلى بيت الغنى منهم .

فكانوا كل مازاد العدو فى الضغط بهم ازدادوا تماسكا وترابطاً . وكثروا قليلا فخاف أن تغريهم الكثرة بمناهضة قريش وهم قليلون فبعث بهم إلى الحبشة تلك البلاد الواسعة الارجاء والتى كان أهلها يسبحون فى بحر البداوة . وفى هذه البلاد وجدوا لمتاجرهم رواجاً ومن أهلها جيرانا وخلانا .

بعد ذلك ترك الدين مع فتية أشداء أمناء يأخذ أخذه ويجرى مجراه . ونهض ليوسع لدينه السرى ويبعثه إلى التقدم بسياسة يحسبها المتعجل عقيمة الجدوى أو بعيدة الثمرة . فعرض نفسه على القبائل والعشائر يطلب التعضيد والمؤازرة ليؤدى رسالته .

واقل ما استفاد من ذلك أن صور للناس جهل قريش وخطأ عقولهم واعتصابهم لغير ما نفع . فأوغر عليهم الصدور وأبعد عنهم القلوب بالنصرة والتساند .

فلما اتسعت له صدور أهالى المدينة هاجر اليها . وبهجرته ترك فراغاً واسعاً فى قريش ليس لكثرة من هاجر معه ، إنما لما ترك من أثر شرعته . وهدوء الأسماع من جديد قوله . فأخذت النفوس فى الناس تتساءل عنه فى الأندية وتمحص دعوته فى الخلوة فتقف منه كالذى ينشد فيه ضالته ويرغب فى رغبته . وخمر فى الأفكار فطير عظاته ونصائحه ودب فى القلوب دبيب دينه فجعل فريق يستقصى شريعته وفريق يتهيأ لقبول قوله ويتجهز إلى اتباعه . وأنتج هذا هدوء الافكار من استنكار دعايته وتصدى رغبته . ففترت نيات قريش عنه وتراخت وحدة عصبيتهم . إلا نفر منهم الكبار وذو السطوة .

ولا مثل سياسته فى المدينة وقد كان أهلها فى طمأنينة من ضروريات العيش بثمر النخيل يقتاتون منه ويتجرون فيه . ولا يشغلهم سوى ما بين فئاتهم من خصومة وثارات قديمة لا يفرغ الطلب بها . فما استقر بينهم قرار هذا السياسى الكبير وأخذ يمشى فيهم بالصلح والسلام ولقبهم بالأنصار فتراجعوا إلى إرشاده وأصغوا إلى عظاته فتناسوا ما كانوا فيه من عداوة واتبعوه فى زياراته لهم فتحابوا وتوادوا ، ولحق به المهاجرون من مكة فعقد بينهم والأنصار عقدة التآخى وأنزلهم ضيوفا فى بيوت الأنصار . فكان محمد كنقطة تتلاقى عندها قلوب الطائفتين وصار كل يعنى ليرضيه . وتداعوا إلى طاعته فازداد حب بعضهم لبعض وأمسوا كأشقاء لا يفرق بينهم فارق .

وعرف أن نفوس الذين حوله قد تعالت باتباع تعاليمه من التلفت الى اللذائذ

البدنية والأغراض الجسمية ، فأرسل فيهم للأمر بتحريم الخمر والميسر ، وبث فيهم التلطف بالمرأة وبين حقوقها وحدد لمعاشرتها الحدود وحث على العطف بالرقيق . فوافق ذلك ما كان قد نشأ فى نفوسهم من الترفع والتعالى ، وأجابوا بكل طاعة .

وأرسل السرايا والبعوث إلى من يخاف تواطؤهم ضد دعوته فأخذ منهم الطاعة إما بالدخول فى الإسلام أو على أداء جزية دائماً أو لأجل . فقص بذلك أظافر التمالؤ عليه وتقطعت أوصال العصبية بين القبـــائل المجاورة . وخسرت قريش بذلك الأمل فى أن تجد ضده أنصاراً . وكانت نتيجة هذا أن امتلأت القلوب منه رعباً وخوفا . فصارت التى لم تؤمن غير آمنة أن يصبحها جيش محمد أو يماسيها .

وكانت اليهود فى بلاد الحجاز تقبض على رؤوس الأموال وترسلها ديناً مقابل ربح فاحش . وكبار المتمولين منهم يغرون بعض قبائل العرب على بعض وبذلك تمكنوا من الرقاب . وجاء محمد المدينة وهى ملأى باليهود وخافوه على أموالهم فراحوا يحرضون الناس بعداوته ويتعقبون مضارته ويذيعون تكذيبه ، فلفت اليهم محمد لفتة وغزاهم فقضى على من ثبت وفر الباقون من وجهه إلى بلاد الشام ، وطهرت المدينة من اليهود وخلصت لمحمد ، وبهذا غيب عن قريش انتظار مساعدة اليهود بالمال والرجال .

ولما كانت مكة من كبريات العواصم فى الحجاز ، وسوقاً عظيمة للتجارة وللحج والأدب كان لهـــذا لاغناء لعرب الحواضر والبوادى من زيارتها والإقامة بها أشهراً . ورأى النبى أنه إذا استحوذ عليها قبض بيده على المملكة العربية . فصوب المرمى إليها وقعد لتجارتها المقاعد وساعده أن كان مركز

المدينة وسطا بينها وبين بلاد العرب والأمصار ، ولا بد لكل تجارة أن تمر عليها . فجعل لا يهدأ عن قصدها ولا يتمهل عن مناصرة أهلها . وتتالت غزواته إليها حتى انخفض صوت الشدة من قريش وأحسوا العجز فتوا كلوا وتخاذلوا وذلوا واستكانوا .

وعلم محمد ذاك منهم فنهض إليهم غير متعمد حربهم . ولكنه نوى تلك الفعلة التى لم يسبقه إليها سياسى قبله ، وهى صلح «الحديبية» الذى مهد طريق فتح مكة وأذل قريشاً . جاءهم فى مئة ألف ولكن بهيئة الحاج . وأذاع أنه لا يريد حرباً فأتوه وهم بين أمل وخوف . وأبوا عليه دخول مكة إلا بعد سنين وعلى شرط أن لا يقبل من جاءه مسلماً ، ويقبلوا من أتاهم مرتداً عن الإسلام . وعلى أن لا يمنعوا مسلماً دخول مكة ، ولا الاتجار فيها ، كما لا يرد هو مكياً عن ذلك فى المدينة . وعلى ذلك فان قريشاً لا تنصر عليه غريما ، ولا تضر من والاه وحالفه .

وهو صلح ظاهره كل الغبن على محمد وقومه ، ووافقهم محمد على شرطهم ، فضج المسلمون استيقانا بالقوة والمنعة من أنفسهم ، وداروا بمحمد يريدون إرجاعه ، فأبى محمد كل الإباء .

كانت نظرية المسلمين بمعارضة الصلح حتى لا تذاع فى العرب غلبتهم فيطمع فيهم أعداؤهم — أما محمد فكانت فكرته أوسع وأدق وأبعد ، فقد رأى أن اختلاط المسلمين بأهالى مكة كاف لنشر دعوة الإسلام فيهم ، وكافلا لاسترباح المسلمين فى التجارة على قريش والعرب ومسبب حقق الدماء بين الطائفتين مدة يكون فيها الإسلام قد عمل خلالها عملا .

ورجع وقد وضع عن نفسه ثقل تحدى قريش ، وهو يعلم أنهم بجهلهم لا يصبرون

على أن يروا رجال الإسلام بينهم فى عز وأمان ، بسبب هذا الصلح . فقصد الجزء الهام والبقية الباقية من اليهود فى «خيبر» ، والضلع القوى فى مضارة محمد وأصحابه .

وكانت يهود خيبر أبطالا وشجعاناً ، فلم يبالهم المسلمون وقاتلوهم من كل صوب فقتلوهم ونهبوا أموالهم . وبذلك اغتنى المسلمون واطمأنوا بفناء ألد عدو كان أشد عقبة لتقدمهم .

وكان محمد بجانب حسن هذا الدهاء والسياسة التى لا تجتمع لمخلوق سعيد الطالع ، فان قريشاً اعتدت على جماعة من مساكنيها تسمى «خزاعة» . وكان هؤلاء من حلفاء محمد وأصدقائه فقتلوا بعض رجالهم فنقضوا عهد محمد فى صلحه لهم وخالفوا شرطهم معه . وذهب الخزاعيون إلى محمد مستنجدين مستغيثين ، فلبى استغاثتهم ونهض لحرب قريش لثلاثة أمور : أولا لنكثهم العهد وعدم الوفاء بالوعد . وثانياً للقصاص منهم على ما استحلوا من دم محرم . وثالثاً لنجدة أحلافه وأودائه .

وسار من المدينة فى مئة وخمسين ألفاً من رجاله ، وعلمت قريش بذلك فاختفى شجعانهم فى زوايا الطرق والبيوت وتشتت الكثير فى البلاد . ودخل محمد مكة ولم يجد معارضاً بل وجد مئات من رجال قريش كانوا قد أسلموا واخفوا إسلامهم خوفاً من الآخرين .

وبذلك استحوذ محمد على مكة والبيت فكان كأنما سل على رقاب العرب عامة سيفاً ماضياً . وخافته العرب فأقبلوا يهادنونه ويهادونه ويبعثون الوفود اليه بالدخول فى دينه أو الخضوع لأمره .

وكان من طباع محمد الكرم والنجدة ، ومن أخلاقه الحلم والعفو ،

وحب السلام ولين الجانب . فكانت هذه الخصال من أعظم العوامل لفوزه ونشر دينه .

ذلك قول من ذكرنا ونحن موافقوهم فى صحة ما استنتجوه من نعوت النبي محمد ، وإن خالفونا فى صدق نبوته . وإذا كان قد توفر له من المزايا الجليلة ما لم ينله غيره . فذلك لأن العالم الانسانى كان فى القرون السالفة أقل عقلا وتدبرا منه فى زمن النبي محمد . فلزم أن يكون كل نبي بقدر ما فى أمته من درجات التعقل واندماج المواهب الجميلة فى النبي ، وليس من قدرة الطبيعة أن تهبه إياها . وإلا رأينا فى أبنائها مثلا له . فثبت أنها من لدن الإله وبتوفيقه ، فنبوغه بدون شريك ولا فى النادر ، يفيد أن به سراً لم يكن ليودعه غيره . وكثرة المزايا تقتضى الأفضلية وسير دعوته بحالة سياسية ، يرجع الفضل فيه إلى الله وحده حباً منه لهداية خلقه .

وفى هؤلاء نفر يتساءل عن معجزات النبي ، وينكر على التواتر آياته ، ويصدق ما ورد من معجز لموسى وعيسى ، على أن ما أتى به النبيون قبله فرط وانقرض ولم يبق إلا خبره فى الأسماع . ولكن القرآن باق لا يزال يقرؤه الناس ويشترعون اليه ويعترفون بأنه المعجز لمن تحداه . وحسبنا به للنبي محمد معجزة تتجدد مع الزمان ولا تتأثر بالحدثان .

وثبوت إعجاز القرآن للفصحاء والبلغاء ، وشهادة من قرأه وتفهم معانيه له بأنه ليس من كلام البشر ، وقد جاء النبي يقرؤه على الناس ويستهديهم به وينير لهم الطرق بأضوائه ، وطواف القرآن به يؤيده وينصره ويهذبه ويعلمه ، ثبوت ذلك للقرآن إثبات للنبوة ، ودليل حسى على صدق رسالته .

وما جهل أن الرسالة للأنبياء (١) أوامر ونواه تعبدية (٢) وأحكام تشريعية (٣) وحكمة للتصرفات البشرية . جميعها يكفل العمل به حفظ كيان نوع الإنسان فى ذواته وفى نظمه الإجتماعية .

والرسول رجل حر يهيئه الله منذ وجوده ، فيوحى لطبعه بتجنب ارتكاب الكبائر . ويحيطه بأسباب تبعده عن كل صغيرة من شأنها ضر الأغيار ، ويخلق فى نفسه شديد الرغبة بإثبات كل صالح . وخاصة فى الأخلاق الصدق والأمانة والأدب والرحمة .

فاذا بلغ سن الأربعين واستكمل هدوء ثورة الطبع فيه . وتم خمود الميل منه الى المطامع البشرية . واطمأنت اليه النفوس اجتباه الله فنزل عليه وحيه بهداية الخلق إلى ما يصلح شأنهم فى دنياهم وآخرتهم ، والرسول باعتبار أنه إنسان لا يخرجه كونه رسولا عن قيود البشرية يصيبه المؤلم من عاديات الطبيعية كالجوع والعرى والتعب والهزال والسقم ، وليس بممتنع أن يصاب بضر أو أذى أو جرح ومثله . بما أن اختياره للرسالة لا يفصله من سلسلة المخلوقات ولا يزحزحه عن قبول الحال فيمن حوله . بل هو كواحد من من الناس يتلاقى والحوادث فيناله النصيب المقدر له .

وليس فى مقدور الرسول ولا باختياره أن يقف التبليغ أو يؤجله ، فضلا عن ترك أدائه لأن اصطفاءه لم يكن باختياره بل بإرادة الله ، وإرادة الله لا تعارض . وليس له أن يختار فيما ينزل عليه بل هو مجبور على تبليغ مايوحى إليه .

والوحى اسم لأوامر الله ونواهيه بكل طرق التنزيل التى هى (١) الإلهام (٢) الرؤيا (٣) وساطة الملك .

والوحى بأنواعه تشريع للرسول وللأمة (١) بالفصل فيما لاتدرك حقيقته (٢) وفيما التبس العـــدل فى قضيته (٣) وبيان لما يتردد العقل فى الصواب منه .

وبصفة الرسول بشراً ، له أن يختار فيما لم يستوقفه أمر من الوحى عنه ، وهو (أى الرسول) بطبع تهذيب الإله له لا يخرج فى فعله عن المباح ، بل لا يستطيع أن يخرج عنه .

وترك الحرية للرسول فى التزوج بأكثر مما أبيح للمسلم فمن قبيل السياسة اللازمة للدين ، فقد يتزوج الرسول بامرأة (١) مكافأة على أن احتفظت بدينها بين فتن الجاهلية وضر المشركين لها (٢) أو استمالة لأهلها إلى مساعدة الدين . (٣) أو ليكف شر ذويها عن المسلمين .

وهذا النبى محمد لم ير أكثر زوجاته قبل التزوج بهن ، وفيه الدليل على أنه لم يتزوج رغبة فى المرأة ولا حباً فى الزواج .

وفى الناس من تحدث عن الخلافة بعد النبى ، يريد أنه كان الواجب أن يشير النبى إلى ترتيبها ، ويوصى عليها ليلزم الناس بها . وقد علم أن خلو القرآن من النص اليها مستلزم لتجنب النبى الكلام عنها . والنبى لو وصّى بها صراحة لكان قد أثار فى الناس بعده فتنة لا يطفأ لهبها . حيث يذهب الناس أحزاباً ويتمزقون فرقا وشعوباً ويتنافر اعضاد الدين وناصروه ، فتعطل دعوته . وكان لا يصل الينا من شريعته خبر .

على أن النبى قد وصّى بالخلافة ولكن بحال غير صريح بأن أمر وألحّ بأن يصلى أبو بكر بالناس بدله ، ولبث كذلك ثلاثة عشر يوماً قبل وفاته .

وقد صلى النبي قبل ذلك مؤتما به مرات ، ولذلك قالت الأنصار فى بيعة أبي بكر : رجل اختاره النبي لديننا أفلا نختاره لدنيانا .

ولم يزد النبي إيضاحاً فى ذلك ، اعتماداً على أنه قد ترك للدين من أصحابه حفظة أمناء أذكياء يستحيل اجتماعهم على ضلالة . وفيما بينهم القرآن يأمرهم بالشورى فيما يعن لهم من أمور الدنيا . وما كان بالجديد فيما يعلمهم فينسوه ، وقد اختبروا فوجدوا أهلا للقيام بأوامره ونواهيه .

واختياره للخليفة الأول وترك غيره يدل إلى أن أمر ذلك مفوض إلى اختيارهم — وقد اجتهد أبو بكر فلم يجد من توفرت فيه الأهلية بعده غير عمر . فاختاره وفى الناس من هو أقرب الى النبي وأعلم وأشد عصبية وأكثر رهطا منه ، وفيهم أيضا القدرة على أن يأبوا على أبي بكر رأيه لو أنهم رأوا فيه خلاف الحق .

وتردد عمر فى الناس فترك الأمر شورى بين جماعة من المنصحين العقلاء المخلصين ، وفيما ذكر الكفاية عن الخلافة .

ولاحظ بعضهم أن اختيار القضاء فى عهد النبي لا يخلو من نقد ، مستدلا بقول على بن أبي طالب : لقد بعثنى النبي على القضاء فى بلاد اليمن ولم يكن لى سابقة خبرة بالقضاء .

وهذا قاله على من قبيل الفخر بثقة النبي به ، وقد درس على النبي العلوم كافة ، واختار النبي معاذ بن جبل وأبا موسى الأشعرىّ وغيرهما ، بعد أن تشبعوا من محاضرات النبي ووصاياه مدة لا تقل عن العشر سنين . وجميعهم فى سن الرجولة — فأى جامعة كجامعة أستاذُ التعليم فيها النبي محمد ؟ وأى مدة تكفى فى نظر الناقد لتعليم النظر فى القضايا أكثر من عشر سنين وخاصة فى أذكياء فطناء ؟ وأين ما ولد فى نفس هذا الناقد من عدم استعداد أولئك الذين

اختارهم النبي للقضاء ؟ ومن ذاك الذى يتقن تمرين المتخرجين غير النبي ؟ . ومن هو العدل الذى يحسن اختيار المتعلمين غير النبي ؟ . أللهم إنها قولة نطق بها الشيطان على لسان قائلها .

وفى المؤخرة حدث ينكر شرف أجداد النبي ، وجوابه بجانب صماخه لو أصغى . ذلك أن النبي لما قام بدعوة الإسلام أفرج الطريق لسائليه ، وأوسع الصدر لمعارضيه . وقد حشرت اليه وفود العرب بين ناقد ومناضل ومعارض ومفاخر يراجعونه فى دعوته ويباحثونه فى شرف نسبه ، وقد ملأت مناقشاتهم له ومنازعاتهم لشريعته ألوف الكتب ، وانتشرت على التوالى وبلسان التواتر حتى لا يكذب من قال إن ذلك مذاع بين طبقات الشعوب من عهد ظهور النبي إلى اليوم . وما سمعنا من أنكر عليه شرف أبائه وسيادة أسلافه . فاذا كان القرشيون أصحاب الشأن وقد عرفوا بالتعصب للرأى وشدة الدفاع عن المقصد . وهم من الشجاعة والجرأة بالمكان الذى عرفت وخاصة فى مقام المناظرة . قد أطروا أجداده وأثنوا على شرفهم خيراً . فإنهم يكونون بذلك قد حكموا على هذا المنكر وأمثاله بمخالفة إجماع الموحدين والعقلاء نسأل الله الهداية .

التاريخ القديم

حديث التاريخ

التاريخ يمر على آف لا الأدهار ويروى حوادثها فى أساطير ، فقد يطوى ملف جيل بحذافيره ، أو يكتفى بالإشارة إلى النذر اليسير منه . ويطيل القول عن حادث . أو ماله علاقة بحادث ، ويذكر جماعة فى عرض البحث عن جماعة. ونفراً فى غرض الاستقراء عن واحد . ويتلقط الأخبار فيثبتها على علاتها ليفسح للبصراء مجال الحكم عليها . وخاصة إذا اعترضته الأبعاد الزمانية القصية النهايات التى يقصر فيها امتداد حبل الرواية . وتبلغ التاريخ كمقطعات متضادة السياق متجافية المقاصد لا قرابة بينها ولا اتصال . ولا يجد البدّ من إثباتها تخلصا بالمطلع من غموض التلخيص أو البحث . وحتى لا تقفه الحيرة بين التمحيص والإهمال .

وكذلك هو لا يروى خبراً لمجرد غرابة فيه فقط بل ولا لأنه إما سارّ جداً أو ضارّ جدا — أو لأنه عقدة يقف عندها الأديب ويتعرف بها الذاهب . وشرطه أن يكون قد نال الحد الأقصى فى الإذاعة والتداول . ولا يبلغ مدى هذا خبر إلا كان له فى الناس كبير وقع ، وزمن بقاء كل خبر فى أيدى التداول بحسب ماترك من أثر . فالتاريخ حكاية تصعدات القلوب بمسرة أو حسرة . وسبب الخلاف فى عبارة الرواية يرجع إلى حالة تأثر نفوس الرواة من الخبر أو له . وإلى تصرف الظروف الاجتماعية والسياسية وتوالى صروف العصور والأزمنة ، والخلاف فى العبارة لا يستوجب التشكك فى الموضوع .

مكة والتاريخ

هذا هو التاريخ يسأل فيحدث ولا يمل ؛ عن وجود العمران بمكة قبل الإسلام بألفى سنة . وأنها كانت مقر الحضارة العربية وملتقى الأنظار ، والجامعة الشاملة لكرام العرب . وينبوع الشرف ومصدر النبل وكرائم الأخلاق . وبها الكعبة المكرمة الموموقة من كل عربى بالإجلال والإعظام . ولكنه يورد متحفظاً وباسان الحذر أسماء أقوام كانت تسكن مكة مسنداً كل عشيرة إلى كبير من عمد التاريخ ! كالذى يستملى من وجود المشاهير أسماء العشائر ، وإن قبل ألفى سنة من ظهور الاسلام أى قبل المسيح بألف وأربعمائة سنة تقريباً لكثير على التاريخ ، وكل تاريخ لا يستطيع أن يثبت شيئا نقياً من الزيف . ومهيأ لقبول العقل له فى كل زمان ومكان . ولا مثل الجيل الحاضر حيث كثر ما يسمى نقداً وفلسفة ؛ وهو بالحقيقة تبرم وعنف سببهما اختلاج الذوق واضطراب عصب الرأس — ولو أن التاريخ روى أخبار قوم لم يبق الزمن لهم أثر خبر بعد روايته لما وجد استماعا ، ولكان لو وجد الإصغاء فى حاجة إلى إقناع المطلع بإيراد السند ، ولكن بقاء ذكر العشائر مجدداً فى فم التاريخ وعلى رأسه شهرة كبارها سند له على صدق روايته .

والناظر فى تاريخ العرب قبل الاسلام بأكثر من عشرين حقبة لا يكاد يبصر شيئا بين ظلمات الجهالة وتقطع الصلات العمرانية بالأبعاد الصحراوية . وكدورة ظل ما كان يقع من خصومات وحروب سفكت فيها الدماء —

وللتاريخ كل فضل إذا هو حمل الينا أخباراً إجمالية التدرج بتدبيرها من الواطىء الغابر والتيه الصرف الشبيه بالغيب المحض ؛ إلى إثبات حياة أقوام كادت تكون مجهولة ، ولقد كاد يكون من المستنكر أن يفاجىء بذكر كبار التاريخ مختزلا بدون سبق سبب له .

العصور الغابرة

من الأوليات السببية المجملة عن أقصى ما وقع تحت نظر التاريخ ؛ أن قد ولى أمر البيت بمكة مضاض بن عمرو الجرهمى الأكبر من ولد بنات ثابت ابن إسماعيل وكان ملكا على قبائل وعشائر تعمر مكة . وهو الذى حفر بئر زمزم . ولأمر ما اعتزل قومه قبل موته وأهملت زمزم فطمرت وذهب أثرها . وورث الهيمنة على مكة بعد هلكة أعقابه دهوراً لا ينازع جرهماً منازع ابتعاداً من أن يحدث بمكة عداء ، ولبثت جرهم مئات القرون وهى على حكم مكة مطاعة من سكانها نافذة الكلمة حتى فى أضيافها وزوار البيت فيها . حتى إذا تم أمرها وارتفع طائرها اغترت بطول خضوع العرب لها ، وبغت وظلمت من يدخل مكة من القصاد والحجاج والتجار ، واستأثرت بالأموال المهداة إلى الكعبة ، وحادت عن سنن العرب ومألوفاتها وظهرت بالعتو والفساد فنشأ بها وباء الرعاف (دم الأنف) فأفنى من نوع الكهول فيها ما يربو عن ثمانين كهلا فى ليلة واحدة . وكان على الرجال والشباب أشد وطأة .

وشعر مجاوروهم بضعفهم ، وكانت جرهم أكثر حيفاً وجوراً على خزاعة ، فنهضت خزاعة لحربها بقيادة أميرها عمرو بن لحى وهو ابن بنت عمرو بن الحرث ملك جرهم يومئذ . وخزاعة أكثر قبائل مكة عدداً وأقواها شوكة وأسمعها كلمة . ونشبت بينهما حرب طاحنة هلك فيها أكثر جرهم ورأى الباقون الغلبة عليهم ففروا حزانى مكروبين مع الملك عمرو بن الحرث إلى بلاد اليمن ، وهو آخر من ملك مكة من جرهم .

ملوك مكة القدماء

ذلك خلاصة الشق الأول من الدور الإجمالى المجهول ، وبعده ابتدأ الشق

الثانى باستيلاء خزاعة على حكومة مكة والبيت ، وكان كبير خزاعة عمرو بن لحى وولى أمرها ، وهو رجل ذو عقل وكرم مع صلابة فى الرأى ومضاء فى العزيمة ، بلغ فى العرب من الشرف مالم يبلغه عربى قبله ولا بعده فى الجاهلية ، وهو أول من أطعم الحاج بمكة شحم السنام على الثريد ، وذهب شرفه كل مذهب وصار قوله ديناً متبعاً لا يخالف ، حتى تداول القول ، بأن صار عمرو رباً لا يبتدع بدعة إلا اتخذها العرب شرعة .

وكان فى موسم الحج يطعم الناس ويكسوهم . نحو عشرة آلاف بدنة وكسا عشرة آلاف حلة ، إلى أن خرج فى بعض أموره إلى الشام ، فرأى بأرض البلقاء قوماً من ولد سام يعبدون الأصنام ، وأخبروه بأنهم بواسطتها يستمطرون فيمطرون ويستنصرون فينصرون .

ورجع الى مكة وقد اختمر ذلك فى نفسه ، وجمع إليه عقلاء قومه وفاوضهم فيما خطر له من أن الله يجب أن ينزه عما تتصف به الحوادث ، ومن ذلك أن لا تبلغه دعوات البشر ، فوافق رأيه ضعفا فى نفوس كبارهم ، وأقروه عليه وأذاعوا اعتقاده . فأفضى هذا بالجميع إلى التعطيل ، ودخل موسم الحج ودعاء الناس : « لبيك اللهم لبيك لا شريك لك لبيك » فأمر بتعديل هذا إلى قول : لبيك اللهم لبيك لا شريك لك إلا شريكا هو ملكك » وسأله قومه فى ذلك فقال : « إنه يملك ذاك الشريك . فلم ينازعوه ، وتبعه العرب فى رأيه ، فكانوا يوحدون الله فى التلبية ، ثم يدخلون معه أصنامهم ويجعلون ملكها بيده ، وأرسل عمرو فأحضر من الجزيرة صنم هبل ونصبه فى بطن الكعبة ودعا إلى عبادته وتعظيمه — فكان الرجل يقدم من سفره فيبدأ به قبل أهله بعد طوافه بالبيت ويحلق رأسه عند هبل ، وبعث إلى جُدّه فأتى

بأوثان كانت تعبد فى قرون قديمة وهى ، وُدٌّ وسُواع ويَغوثُ ويعُوق ونَسْر ، إلى صنمين كانت العرب تتبرك بهما وهما ، أساف ونائلة ، ووضع الجميع حول الكعبة وصلى إليها فقلدته العرب ، وكان يخبر قومه بأن الإله يشتى بالطائف عند اللات ويصيف عند العُزَّى ، فكانوا يعظمونهما ويهدون اليهما مثل ما يهدون الى الكعبة ، ومن ذلك الوقت انتشرت عبادة الأصنام ، وزاد غرور عمرو فأحل أكل الميتة . واحتج على قومه فى ذلك بقوله : « كيف تأكلون ما قتلتم ولا تأكلون ما قتل الله ! » فوافقه البعض . ومنعه الكثير استقذاراً ، وعاش عمرو هذا حتى رأى من ولده وولد ولده ألف رجل ، وتداول الحكم فى مكة أولاده وأعقابه ، وكان آخر من حكمها من خزاعة حُليل (بضم الحاء) الخزاعى كما سيأتى :

أجداد محمد

عـــدنان

والذى عليه الإجماع أنه فى خلال دور جرهم ، وقبل أن تبدأ الحركة بظهور المسيح بعشرين قرناً كان قد ملأ الأسماع حديث عدنان بن أد من ولد اسماعيل . وهو أحد أشياخ مكة وسادات البيت ، وأكبر عقدة عددية فى التاريخ العربى ، واليه يرجع شرف النبلاء فى مكة ، وأول من رغب عن اســـتعمال اللفظ المستثقل من لغة قحطان ، وإليه ينسب البدء فى تحوير اللغة العربية القحطانية إلى لغة الحجاز وما والاها ، وأول من وضع أنصاب الحرم وكسا الكعبة ، وكان يأنف أن يكون فى عبدة الأوثان ويقول : « أفأكون أذنا (ذا أذن) والإله أصم ! ؟ » وكان فى أوائل المقربين من ملوك جرهم ، ومن ذوى الرأى

الموقر بينهم ، وكان مهاباً فى العشائر والقبائل ، وهو أول من بدأ بوضع صور رءوس حروف عربية مفرقة .

وكان عدنان معاصراً لبعض أنبياء بنى اسرائيل بعـــد موسى ، وكان اليهود يبتعدون عنه ويتجنبون أن تكون لهم به صلة ، لما يظهر من بغضه لهم ومقته إياهم .

معـــد

وورثه فى شرفه وسؤدده ولده معد بن عدنان ، وكان أميراً نبيلا وسيداً كريماً عالى النفس شهماً شجاعاً وقائداً عظيما ، وكان شديد التمسك بمألوفات العرب لا يصله خلاف منهم إلا نهض لقمعه بالنصيحة والسيف . وكان لا يعتقد بوساطة الأوثان ، ولا يرى فى عبادتها غناء وكثيراً ما كان يقول مامعناه : إن الله أقرب إلى من نفسى ولا يستوسط إلى قريب . ولذلك كان لا يوجد مع القوم فى اللياذ بها .

وفى زمنه ظهرت فتنة بختنصر البابلى ، وقد غزا بجيوشه العرب فتعدى معد إلى مقاومته وثبت حيناً فى دفاعه ومناضلته ، ولكن خذلته جرهم وأحلافها وتراجعوا متحصنين بالجبال من بختنصر ، فخلاهم معد وهاجر بأهله مع أرمياء النبى إلى الشام ، وأقام فى جواره زمناً وفى نفسه بغض بنى إسرائيل ، حتى إذا هدأت فتن بختنصر وخمدت ثورتها بعد هلاكه عاد معد إلى مكة ، ولم يستقر به المقام وعاد إلى شن الغارات على اليهود فى بلاد العرب ، مجدداً سنة أبيه بمناصبتهم العداء ، وانتصر عليهم فى وقائع متعددة ، وحصرهم فى نواح خاصة حتى لا تقوم لهم قائمة .

نزار

وولى أمر القوم بعد معد ولده نزار ، وكان أجمل أهل زمانه ، وكان كثير التفكير حكيما مدبراً ميالا إلى السلم والهدوء محباً للعزلة ، حافظاً لأنساب العرب وأخبارهم وعاداتهم عارفا بمنازلهم ، وهو الذى أكمل صور حروف العربية مفرقة ورسمها بجمعة ، وأول من كتب الكتب باللغة العربية ، وكان محبوباً فى قبائل العرب كافة ، وخاصة المقيمة فى مكة ، وصاحب الرأى فيهم ، وكان يستنكر أن يسجد لصنم .

مضر

ومن ولد نزار مضر ، أخذ مقام أبيه فى قومه ، وكان جميل الصورة لا يراه أحد إلا أحبه ، وحسن الصوت بدرجة فائقة وهو أول من وضع الحداء للإبل ، وزاد الناس فيه — ومن قوله : « من يزرع خيراً يحصد غبطة ، ومن يزرع شراً يحصد ندامة ، وإن خير البر أعجله ، فاحملوا أنفسكم على مكروهها ، فاصرفوها عن هواها فيما أفسدها ، فليس بين الصلاح والفساد إلا صبر فواق الناقة » (وهو ما بين الحلبتين) ، وكان ينفر من عبادة الأصنام ، ويرى العرب محتشدة حولها فيقول : « إن لم يكن الآله يسمع ندائى فأنا أكمل منه خلقاً ، ولا يعبد الكامل ناقصاً » . وكان ودوداً لقومه ، كثير الخير لقصاده معظما من جرهم ملوك مكة ، مترفعاً عن الرغبات المسترذلة .

الياس

وورث مضر الياس سيادة القوم ورياسة الأشراف ، وكان ذا عقل وافر وحكمة بالغة ، وهو أول من أهدى البدن (النوق) إلى البيت ، وقد

عظم أمره فى العرب حتى كانوا يدعونه بكبير قومه وسيد عشيرته ، فلا يقطعون أمراً دونه ، وكان فى العرب كلقمان الحكيم فى قومه يحتكمون إليه ويرجعون إلى رأيه ، ويتحاثون على تنفيذ أمره ، وكان خطيباً فصيحاً قوى الإقناع ، ويرى الناس حول الأصنام فيمتعض قائلا : « الويل لكم ! إنه إن جاز أن يكون الإله لا يسمع ، جاز أن يكون لا يعلم ، وإذن فيقع فى ملكه ما لا يريد » وهو أول من عرف أنه مات بمرض السل فى العرب .

مدركة

وابن الياس مدركة ، حاز من الفضائل أجلها وأسماها فكان ذكياً فطناً لا يخطىء رأيه ، ولا تخيب فراسته . حتى لقد ظن أنه يعلم الغيب ، وكان وديع الأخلاق لين الجانب حلو الشمائل ، تتحدث العرب بمحامده ، وكان كبير المروءة سخياً ، ويدعى فى المواسم إلى مساجد الأصنام فيقول هازئاً : « مالكم ! إنما تبتغى الواسطة لغائب أو غافل ، ولئن كان الإله أحد هذين هلك الواسطة والموسوط » .

خزيمة

وولد لمدركة خزيمة ، شيخ العرب وأبو كثير من العشائر ، وكبير مكة ، ومن رؤساء البيت كان سهلا متواضعاً ، وكان مزواجا وغنياً محباً للتجارة ، يحث قومه على العمل فيها والاسترباح منها ، ويساعد من ماله المشتغلين بها ، وكان له خيمات من عيدان الشجر تبنى له عند ملتقى الطرق لاستقبال الضيوف ، وكانت العرب تقصده فى المواسم وغيرها للاستعانة بماله ورأيه ، وقد عرف أنه لم يسجد لصنم قط ، ومن قوله : « إنى لأحمق إن التمست لمن يعلم وساطة من لا يعلم » .

كنانة

وأكبر ولد خزيمة كنانة — كان شيخا وقوراً عظيم القدر تخير مكارم الأخلاق وأشرف المبادىء . وكان متعطفاً مجاملا ، وكان مستودع أسرار أمراء العرب وموضع ثقة زعمائها . تحج العرب لعلمه وفضله ويقتدون بعقله وقوله — ويتحاكمون إليه فى مواضع الخلاف . وكان يأنف أن يأكل وحده . فاذا لم يجد أحداً أكل لقمة ورمى لقمة إلى صخرة توضع بين يديه أنفة من أن يأكل وحده . وإذا سئل عن عبادة الأوثان قال : « إن الله أشد غيرة من أن يرضى بواسطة بينه وبين خلقه » ومما يؤثر عنه قوله : « رب صورة تخالف المخبر قد غرت بجمالها واختبر قبح فعالها ، فاحذروا الصور واطلبوا الخبر » .

النضر

ولكنانة ولد النضر ، وفى أيامه بدأ نفور العرب من جرهم لما ظهر من بغيهم واعتدائهم . واتجهت الميول إلى النضر يجتمعون اليه ويلتفون حوله . وكان النضر عظيما فى نفسه مهيباً فى العرب جميعها مسالماً جرهم وسواها . وكان حراً صريحاً سموحاً مترفعاً وكان أميراً فى قومه وحاكماً فى القبائل غيرهم . وكان لا يرى خصومة أو خلافا فى جماعة إلا اجتهد فى إزالته . ويواجه الرجل من عشائر مكة فيلح به حتى يقف له على حاجة فيبادر بقضائها . ويعتب على من لم يكلفه بأمره أو يعلم أنه التمس حاجة من غيره . وكان يقضى الليالى مع أضيافه فى بيت خاص فلا يأتى أهله إلا ندرة .

وكان إذا رأى الناس حول الأصنام انصرف . ويسأل فيقول : « أخص

أوصاف الله الألوهية ، ولا أستطيع أن أشرك معه غـــيره فى أخص أوصافه » .

مالك

وللنضر ولد مالك . وهو سيد عشائر النضر وكنانة — وخزيمة ومدركة وكبير أمراء الكعبة . وفى أيامه سقطت حكومة مكة من جرهم . وأخرجتها خزاعة بمساعدة العرب من مكة ووليتها خزاعة . وعشائر عدنان أقوى العرب عصبية وأشدها منعة وصولة فكان مالك أوفر جاها وأكثر رهطا وأنفذ أمراً حتى فى خزاعة . فكان ملكا بأتم معانى الملكية . وكان شديد الغيرة على اسم العرب . فاتخذ داراً ينزلها القصاد والسفار والأضياف والحجاج وكبار القبائل من مضر يأتيهم بالقرى ويزيد فى إكرامهم . فيتعاورون ما يكون قد استجد من العادات والمؤتلفات . وكان قارئا كاتباً حافظاً واعياً ما يبلغه من الأخبار . وكان يحتقر الوثنية ويقول : « لوكنت الذى يرى القرب من الله بواسطة لاتخذتها من آبائى » .

فهـــر

وولد لمالك ولده فهر . وهو قريش وإليه تنسب قريش . ولقب به لأنه كان يقرش (يفتش) على حاجة المحتاج فيسدها بماله . وعنه أخذ بنوه عادة بحث أهل الموسم عن حوائجهم فيرفدونهم — وكان موقراً فى العرب محبوباً منهم مفضلا لديهم لعقله وعلمه . وإلى زمنه كان ائتلاف العرب لم يتم لخزاعة . وجاء حسان بن عبد كلال بجيش حمير وغيرهم لهدم الكعبة ونقل ما بها من الأحجار المكرمة ليبنى بيتاً فى اليمن يحج إليه الناس . ونزل بنخلة

فأرسل فهر الكتب إلى العرب ، فاجتمع لديه كثير القبائل . والتقى بجيش حسان ، وجرت بينهم حرب هائلة انهزمت فى نهايتها حمير ، ومن انضم اليها . وأسر حسان فبقى فى أسر فهر ثلاث سنين . وافتدى نفسه بمال كثير ، وخرج فمات فى طريقه بين مكة واليمن . ومن يومئذ علا أمر فهر ، وهابته العرب وزادت تعظيمه . وكان ينظر إلى الناس مجتمعين إلى الأصنام فيقول : « كل ماتحت الشمس إنما خلق من أجل الإنسان ، فبحسبكم أن فضلتم عليه الحجر . ولا ترقوا فتعدلوا الحجر بالإله » .

غالب

وولد لفهر غالب . وكان شجاعاً مقداماً عالى النفس ، تخشى العرب سطوته وتخافه . وكان مع هذا جواداً سخياً كثير الخير ، لايرى فى ماله ميزة لنفسه عن سواه ، كبير النجدة أجاز جوار مواليه وخدمه . واعتبر نباح كلابه للقصاد ذمة وجواراً . وكان لايأكل إلا مع ضيف ، فإذا لم يجد من يؤاكله امتنع عن الأكل ، وكان يستنكر عبادة الأوثان ، ويقول : « إنى لأكبر أن يغبّر وجهى بالسجود لغير خالقه » .

لؤى

وأكبر ولد غالب لؤى ، كبير شيوخ مكة وسيد أمراء الكعبة ، والمتقدم عليهم . اشتهر بالذكاء والفطنة وسمو المدارك والرزانة . حتى قيل عنه « كأنما لاينطق بالكلمة إلا بعد استشارة » . وقالوا : إن لسان لؤى فى عقله . فكانوا يترقبون قوله ليتفاءلوا به ، وليرسلوا مايقوله حكمة ومثلا . فمن قوله : « الحياة عارية فلا تبالوا سلبتموها قهراً أو باختيار . كل من حولكم له نصيب فيما

بيدكم حتى الحيوان ، وظلم أن تحجبوا المستحق نصيبه — إنا لم نختر على أى صورة نخلق . فبأى حق نتخير مانرزق ؟! — جددوا الآمال إن بليت ، وابعثوا الهمم إن ونيت ، ولاتخاذلوا تذهب ريحكم ، وتناصروا تهن صعابكم . إن الله ليبغض المتجبر وإن كان محقاً ، وإنه ليحب أن يسأل فى الرخاء فتوسلوا إليه بالتقوى » .

كعب

وابن لؤى كعب . جمع إلى النباهة حكمة نادرة وفصلا ومروءة ، طار ذكره بالمحامد فى الغرب ، وأخذ من الأفئدة المكان الأمكن . وله المجالس المعروفة والخطب المملوءة بالعظات البالغة والأفكار الشاملة . وكان يجتمع إليه القوم يوم العروبة (وسمى فى الإسلام الجمعة) فيعظهم . وهو أول من قال ـ أما بعد ـ ومن خطبه : « أما بعد فاسمعوا وافهموا ، وتعلموا واعلموا . ليل ساج ، ونهار شاج ، والأرض مهاد ، والسماء بناء . والجبال أوتاد . والنجوم أعلام . والأولون كالآخرين . فصلوا أرحامكم . واحفظوا أصهاركم ، وثمروا أموالكم . الدار أمامكم . والظن غير ماتقولون » . وكان مصلحاً عظيما وقيما أميناً . لم يقم فى خلاف إلا أصلحه . ولا ترك خصوماً إلا على وفاق . يتباعد عن محشر القوم فى العبادة قائلا : « مالى وحدث الغفل ، وبدعة البهل . إنما يستبق المغاور . من جهل المصاير » . وقد جزعت العرب لموته فأرخوا به .

مرة

ولكعب ولد مرة . ورث أباه فى السيادة على القوم والإمارة على الكعبة . وغلا فى سنن آبائه . فألزم بالإجتماع يوم العروبة ، وحث على صلة

الرحم وحرض على القروض المؤتمنة وكفلها . ورغب بشدة فى إقراء الضيف ، وضمن ماينفق له . وحبب فى التجارة على أن يغرم من ماله الخسارة . وكان يبغض أن يحضر ظلامة ، ويخاصم أهله عن المظلوم والضعيف وكان معظماً فى خزاعة ، ترجع إليه فى العظائم ، وكان يستهزىء بعبادة الأوثان ، ويدعى إليها فيقول : « إنى لأكرم وقتى من الضياع فى مالا غناء به » .

حكيم

ولمرة ولد حكيم . المعروف بكلاب (لكثرة اقتنائه لها لأجل الصيد) وفى زمنه وجدت الحركة الفكرية بظهور المسيح ، وذاع خبر رسالته فى الحجاز وبلاد العرب ، وكان حكيم سيداً وشجاعاً ، ومقداماً على الأخطار ، وكانت العرب جميعها تتقى حدوث مايغضبه ، وكان منصفاً من نفسه شديداً فى الحق يعز الفقراء والضعفاء ، ويعتز بهم ويعنى بقضاء حوائجهم . ويرى القوم يتنادون إلى المعبد ، ويقول : « بدعة ضلال ، أورثتكم الخبال ، وستفضى بكم إلى الوبال » .

قصى

ولحكيم ولد قصى . وبهذا سمته أمه ، واسمه يزيد وكان حكيم والده تزوج أمه من بنى كلب ومات وقصى فطيم . فرحلت به أمه إلى بنى كلب وهناك تزوجت برجل يدعى حزام بن ربيعة من قضاعة ، وتربى قصى فى بيت حزام حتى شبوبته . ووقع بينه وبين رجل من آل زوج أمه شر أفضى بقصى إلى مناضلته ، فغلب قصى الرجل ، فعيره هذا بالغربة . وقال : « ألا تلحق بقومك وبلادك ، فإنك لست منا ؟! فرجع قصى إلى أمه فقالت له : « إن بلادك خير من بلادهم ، وقومك خير من قومهم ، أنت أكرم أباً منهم . أنت ابن

حكيم بن مرة . وقومك بمكة عند البيت الحرام تفد اليهم العرب » . فأراد قصى الخروج إلى مكة ، فقالت أمه : « لا تعجل حتى يدخل الشهر الحرام وتخرج مع حجاج قضاعة ، فإنى أخاف عليك فتاك العرب » فلما شخص الحجاج سافر قصى مع قضاعة . وكانوا قد عرفوا فضله وشرفه ، فأكرموه وقدموه عليهم . وقدم مكة وتعرف إلى قريش ، فأجلوه وعظموه وأنزلوه منزل أبيه . فساد قومه وعلت محامده ، فتزوج بنت حُليل (بضم الحاء) الخزاعى ملك مكة والكعبة . فجاء منها بأولاد وكثر ماله .

ومات حليل وعهد بأمر مكة إلى ولده أبى غبشان (بضم الغين) وكان أبو غبشان بعقله دَخَل فباع قصياً ولاية مكة ، وأمر البيت ، بثمن انتقده منه ، ولم توافق خزاعة على أن يلى أمر البيت غيرهم . فحذرتهم قريش الظلم والبغى وأن قصياً أحق بالبيت لأنه من ولد إسماعيل . فأبت خزاعة . فدعت قريش كنانة إلى نصرة قصى . وانضمت إليها قضاعة جاء بها أخو قصى لأمه ، واقتتلوا قتالا شديداً كثر فيه القتل والجراح فى الفريقين ، وكان فى خزاعة أكثر . فقام الشيوخ من الفريقين وتداعوا إلى الصلح ، واتفقوا على أن يحكموا عمر بن عوف ، وكان شيخاً معروفاً بأصالة الرأى ، فواعدهم على الاجتماع بفناء الكعبة فى اليوم التالى . واحتشد القوم ، فقام عمر خطيباً وكان من قوله : « ألا إنى قد شدخت (كسرت) ما كان بينكم من دم تحت قدمى ، فلا تباعة لأحد على أحد فى دم ، وقضيت لقصى بأنه أولى بولاية مكة » . فوافق الجميع على حكمه . ومن يومئذ أجليت خزاعة عن البيت ، وصار قصى ملكا فى مكة ، وأرسل الكتب تباعاً فجمع إليه فرق قريش بعد تفرقها فى البلاد ، وقسمها اثنتى عشرة قبيلة . (ولذلك سمى بجمعاً) . وقصى أول رجل من كنانة أصاب

ملكا . فلما حضر الحج قال لقريش : « قد حضر الحج وسمعت العرب بما صنعتم ، وهم لكم معظمون . ولا أعلم مكرمة عند العرب أعظم من الطعام ، فليخرج كل إنسان منكم من ماله خرجاً » . وفى أوان الحج جعل قصى ينحر على كل طريق من طرق مكة جزوراً ، ونحر بمكة فوضع اللحم على الثريد ، وسقى اللبن والماء المحلى بالزبيب . وهو أول من أوقد النار بمزدلفة ليراها الناس من عرفة . وحاز قصى شرف مكة كله . فوزع على ولده وظائف البيت . ومن قوله : « من أكرم لئيما أشركه فى لؤمه ، ومن استحسن قبيحاً نزل إلى قبحه ، ومن لم تصلحه الكرامة أصلحه الهوان ، ومن طلب فوق قدره استحق الحرمان ، والجور هو العدو الخفى » . ثم قسم نواحى مكة على أقسام قريش فسمى من سكن البطاح منها قريش البطاح ، ومن سكن الظواهر قريش الظواهر (والأولى أشرف) وأمرهم أن يبنوا بيوتهم داخل الحرم ، حول البيت ، وقال لهم : « إن فعلتم ذلك هابتكم العرب ، ولم تستحل قتالكم » فبنوا حول البيت من جهاته الأربع ، وجعلوا أبواب بيوتهم جهته ؛ لكل بطن منهم باب ، كباب بنى شيبة وباب بنى سهم وباب بنى مخزوم وباب بنى جمح . وتركوا قدر الطواف بالبيت ، وبنى قصى دار الندوة ، وهى أول دار بنيت بمكة . وكان بمكة من العضاه شجر كثير (كل شجر يعظم وله شوك واحدها عضاهة) فهابت قريش ماجاء منه فى بيوتهم ، وشكوا ذلك إلى قصى فأمرهم بقطعها . فأبوا وقالوا : نكره أن ترى العرب أنا استخففنا بحرمنا — قال قصى : « إنما تقطعونه لمنازلكم وما تريدون به فساداً . بهلة الله (أى لعنته) على من أراد فساداً » وقطع قصى بيده منها فاقتدوا به .

وكان عبدالله أكبر أولاد قصى . سبقه إلى الشرف أخوه عبد مناف ، وهو

أصغر منه . وكان قصى أشد حباً لعبد الدار — فقال له : « أما والله يابنى لألحقنك بالقوم (يعنى أخويه) وإن كانوا قد شرفوا عليك ، لايدخل رجل الكعبة حتى تفتح له أنت بابها (وهى الحجابة) ولا يعقد لواء حرب لقريش إلا بيدك (وهى اللواء) ولا يشرب أهل مكة إلا فى سقايتك (وهى السقاية) ولا يأكل أحد من أهل الموسم إلا طعامك (وهى الرفادة) ولا تقصع قريش أمراً إلا فى دارك (وهى دار الندوة) ولايكون أحد قائد القوم إلا أنت (وهى القيادة) » فصارت هذه الوظائف من يومئذ خاصة بعبدالدار .

ولما احتضر قصى قال لأولاده : « اجتنبوا الخمر فانها تفسد الأذهان ، ولا تصلح الأبدان » .

عبد مناف

وولى أمر مكة والبيت بعد قصى ولده عبد مناف ، واسمه المغيرة . وكان قد شرف فى حياة أبيه ، وذاع اسمه بالفضائل حتى لقب بالفيّاض لجوده وكرمه ، وبالبدر لحسن شمائله ، وكان يقال له ولأخيه المطلب « البدران » ، وقد انتشر ذكر عبد مناف فى العرب بالثناء والحمد . وأحبته العرب كافة ، وأطاعت أمره ، ورغبت فيه ، وعظمته وفخرت به .

هاشم

وأكبر أولاد عبد مناف ولده هاشم ، وهو عمرو العلا ، لقب بذلك لعلو مقامه . وكان قد ولد هو وأخوه عبد شمس توأمين أصبع رجل هاشم ملصقة بجبهة عبد شمس ، فلم يمكن فصلها إلا بسيلان دم ، فكانوا يقولون : « سيكون بينهما خصومة ودم » ، وكان هاشم جليلا وقوراً يصنع الطعام للحجاج ليأكل منه من لم يكن له سعة ولا زاد . وقد أصاب الناس شبه جدب شديد .

فخرج هاشم إلى الشام فاشترى من غزة دقيقاً وكعكا . وقدم به مكة فى الموسم فهشم الخبز والكعك ونحر الجزور وجعله ثريداً ، وأطعم الناس حتى شبعوا . وكانت له مائدة منصوبة لاترفع فى السراء أوالضراء . ولأول موسم حج من توليته قام فأسند ظهره إلى الكعبة من تلقاء بابها ، وخطب قريشاً فقال : «معشر قريش ، إنكم سادة العرب وأحسنها وجوها وأعظمها أحلاماً وأوسطها (أشرفها) أنسابا . وأقرب العرب بالعرب أرحاما ، معشر قريش إنكم جيران بيت الله ، أكرمكم بولايته وخصكم بجواره دون بنى إسرائيل ، وإنه يأتيكم زوار الله يعظمون بيته . فهم أضيافه وأحق من أكرم أضياف الله أنتم . فأكرموا ضيفه وزواره فإنهم يأتونه شعثاً غبراً من كل بلد ، على ضوامر كالقداح فأكرموا ضيفه وزوار بيته . فورب هذه البنية لو كان لى مال يحتمل ذلك لكفيتكم إياه ، وأنا مخرج من طيب مالى وحلاله ما لم يقطع فيه رحم ، ولم يؤخذ بظلم . ولم يدخل فيه حرام ، فمن شاء منكم أن يفعل ذلك فعل ، وأسألكم بحرمة هذا البيت أن لايخرج منكم من ماله لكرامة زوار الله وتقويتهم إلا طيباً لم يداخله ظلم ، ولم يقطع فيه رحم ، ولم يؤخذ غصباً » . فكانت قريش تجتهد فى ذلك وتخرج من أموالها فتضعه فى دار الندوة ، وأراد هاشم وإخوته أن يأخذوا وظائف البيت من بنى عمهم عبد الدار بعد وفاته . وأوشكت أن تقع الفتنة بينهم . ولكنهم اتفقوا أخيراً على أن السقاية والرفادة والقيادة لبنى عبد مناف ، والحجابة واللواء لبنى عبد الدار ، ودار الندوة بين الجميع ، تحالفوا على ذلك .

وقد صح ما تشاءم منه الناس بعد مدة فان هاشماً لما ساد قومه بعد أبيه عبد مناف ، حسده ابن أخيه أمية بن عبد شمس ، وتكلف أن يصنع كما

يصنع هاشم فعجز ، فغيرته قريش وقالوا له : أتتشبه بهاشم ؟ فاستكبر أمية قولهم وأنف منه ، ودعا هاشماً للمنافرة . فأبى هاشم ذلك لسنه وعلو قدره . فلم تدعه قريش — فقال هاشم لأمية : « أنافرك على خمسين ناقة تنحر بمكة وعلى الجلاء عن مكة عشر سنين » . فرضى أمية بذلك وجعلا بينهما الكاهن الخزاعي وكان بعسفان فخرج كل منهما فى نفر ، ونزلوا على الكاهن . وقبل أن يخبروه خبرهم بادرهم بقوله : « والقمر الباهر ، والكوكب الزاهر ، والغمام الماطر ، وما بالجو من طائر . وما اهتدى بعلم مسافر ، من منجد وغائر . لقد سبق هاشم أمية إلى المفاخر » فعاد هاشم إلى مكة ، ونحر الإبل ، وأطعم الناس . وخرج أمية إلى الشام فأقام بها عشر سنين — فكانت أول عداوة وقعت بين هاشم وأمية .

وخرج هاشم تاجراً إلى الشام ، فنزل على بنى النجار وتزوج منهم على شرط أن تلد زوجته فى أهلها ، وبنى بها فى عودته . ثم ارتحل بها إلى مكة ، فلما أثقلت بالحمل خرج بها فتركها عند أهلها بالمدينة ، وعاد هو إلى مكة . وبعد أيام عزم على تجارة فى الشام ، وكان ضعيفاً هزيلا فقال لأخيه المطلب : « إذا فرغت فأدرك عبدك بيثرب » يعنى ولده من زوجته المدنية — وذهب فى تجارته — فمات بغزة .

عبد المطلب

وابن هاشم عبد المطلب ، واسمه عامر . ولقبه شيبة ، لوجود شعر أبيض بوسط رأسه من ولادته . وهو ولد هاشم من زوجته المدنية . مكث مع أمه حتى شبوبته . وجاءه عمه المطلب عقب موت أبيه . ورآه فعرف فيه شرف أبيه . ففاضت عيناه . وقال لمن حوله : « أهذا ابن هاشم ؟ » قالوا : نعم .

فعرفهم أنه عمه . وأخذه وسار به إلى أمه . وروادها فى أخذه فقالت : « لست بمرسلته معك » . فقال لها المطلب : « إن ابن اخى قد بلغ وهو غريب عن قومه ونحن أهل بيت شرف فى قومنا . وإقامته فى قومه وعشيرته وبلده خير له من الأقامة فى غيرهم ، ولست بمنصرف إلا به » . وقال عبد المطلب : « وإنى لست بمفارقها إلا إذا أذنت » . فأذنت له . ودفعته اليه ، فأردفه على بعيره ، وكان عبد المطلب بوجهه سمرة من حر الشمس . فسار به المطلب إلى مكة . وكلما سئل عنه قال : « إنه عبدى » حياء من سواده .

وهو مفزع قريش فى الشدة ، وملجؤهم فى الأمور . كان شريف قريش وسيدها كمالا وفعالا من غير مدافع . ويقال له الفياض ومطعم طير السماء . لأنه كان يرفع من مائدته للطير فى رءوس الجبال . وكان من حلماء قريش وحكمائها . وكان نديمه حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف . وكان فى جوار عبد المطلب يهودى فأغلظ اليهودى القول مرة على حرب فى سوق من أسواق تهامة . فأغرى حرب عليه من قتله . وعلم ذلك عبد المطلب . فقضى على حرب بدفع مئة ناقة دية أخذها ابن عم اليهودى ، وترك منادمته . ثم نادم عبد الله بن جدعان . وكان عبد المطلب يأمر أولاده بترك الظلم والبغى ، ويحثهم على مكارم الأخلاق ، وينهاهم عن دنايا الأمور . ويقول : « لن يخرج من الدنيا ظلوم حتى ينتقم منه وتصيبه عقوبة » إلى أن هلك رجل ظلوم من مكة ، ولم يعلم أنه أصابته عقوبة . فقيل لعبد المطلب فى ذلك ففكر وقال : « والله إن وراء هذه الدار داراً يجزى فيها المحسن بإحسانه ويعاقب المسىء على إساءته » . وفى آخر عمر عبد المطلب رفض عبادة الأصنام ووحد الله تعالى ، وكان وفياً بالنذر يمنع نكاح المحارم ويقطع يد السارق وينهى عن قتل الموءودة ويحرم الخمر والزنا . ولما مات المطلب بن هاشم عمه وثب على عبد المطلب عمه نوفل بن عبد مناف ، وغصبه

أفنية ودوراً . فسأل عبد المطلب رجالا من قومه النصرة على عمه نوفل ، فأبوا وقالوا : « لا ندخل بينك وبين عمك » . فكتب إلى أخواله بنى النجار بالمدينة بما فعله معه عمه . ولما وقف خاله أبو سعد بن عدى بن النجار على كتابه بكى ، وسار من المدينة فى ثمانين راكباً حتى قدم مكة . فنزل الأبطح وتلقاه عبد المطلب وقال : « النزل ياخال » . فقال : لا والله إلا أن ألقى نوفلا ، فقال : تركته فى الحجر جالساً فى مشايخ قريش . فأقبل أبو سعد حتى وقف عليهم ، فقام نوفل قائما وقال : « انعم صباحا يا أبا سعد ، قال أبو سعد : لا أنعم الله لك صباحا » ثم استل سيفه وقال : « ورب هذه البنية لئن لم ترد على ابن أختى أفنيته ودوره لأملأن منك هذا السيف » . فقال نوفل : « قد رددتها عليه » فأشهد عليه مشايخ قريش ، ثم نزل على عبد المطلب ، فأقام عنده ثلاثا واعتمر ورجع ، ولما جرى ذلك حالف نوفل وبنوه بنى أخيه عبد شمس على بنى هاشم . وحالفت بنو هاشم خزاعة . وبقى لذلك أثر فى ولد نوفل حتى قال عدى بن نوفل لعبد المطلب : « تستطيل علينا وليس لك إلا ولد ، ولا مال لك ، وأنت واحد من القوم !؟ » فقال عبد المطلب : « أتقولها ، وقد كان نوفل أبوك فى حجر هاشم ؟! » فقال عدى : « وأنت أيضاً كنت فى يثرب عند غير أبيك فى أخوالك من بنى النجار ، حتى استردك المطلب ! » قال عبد المطلب : « أو بالقلة تعيرنى ؟ فلله علىّ النذر لئن أتانى الله عشرة من الأولاد الذكور ، لأجعلن أحدهم لله نحيرة » .

اكتشاف زمزم

وكان عبد المطلب يحب إكرام زوار البيت وأضيافه . ورأى قريشاً إذا حل الموسم بنو بمكة حيضاناً ونقلوا إليها الماء من الآبار البعيدة ، ليستسق

الحجاج منها ، فيتعب القرشيون ويظمأ الحجاج فيما بين مرات نقل الماء . فشغل هذا نفسه ، وبقى يعمل الفكر ليلا ونهاراً ، فرأى بعد حين فى نومه ، أنه يحفر لسقاية الحج فى البيت بئراً فى مكان معين . فلما استيقظ قام ليحفر بين الصفا والمروة فمنعته قريش . فقال لولده الحرث : « ذد عنى حتى أحفر ، فوالله لأمضين لما أمرت به » . ورأته قريش مصمماً ، فكفوا عنه . ولم يحفر غير يسير وبدا له الطمى (البناء) الذى بناه مضاض الجرهمى ، فكبر وقامت إليه قريش ، وقالت : « والله يا عبد المطلب إنها بئر أبينا إسماعيل ، وإن لنا فيها حقا فأشركنا معك » فأبى عليهم رغبتهم .

ورزق بعد ذلك بعشرة أولاد فطولب فى الرؤيا بوفاء نذره . وأخذوا القرعة فكانت على عبدالله ، وكان أحب أولاده إليه ، فأخذه عبدالمطلب بيد والشفرة بيد ، وكاد يذبحه . فقام إليه بنو قريش وأخواله من بنى مخزوم ومنعوه . وقالوا : « والله ما أحسنت عشرة أمه . أفلا أرضيت ربك ، وفديت ابنك » . ففداه بمائة ناقة فزاده الله ولدين .

زواج عبد الله

وكان عبد الله بن عبد المطلب حسن الوجه طلق المحيا ، وديع النفس جليل الخلق ، وشريفاً محبوباً من قريش ومن جاورها من العرب . قد شغل من شبوبته بالتجارة والعمل فيها . ولما بلغ من السن حوالى الثلاثين ، تخير عبد المطلب فى أن يزوج عبدالله . ونظر فإذا لا يعدله فى نسبه وشرفه غير بنى زهرة . فأخذ بيد عبد الله ، وسار فى نفر من قريش ، يريد زواجه بالسيدة آمنة بنت وهب بن عبد مناف . وهنا وصفت له بنت عمها هالة بنت وهيب بن عبد مناف ، فتزوج الثانية وهى أم حمزة . وزوج الأولى لولده عبد الله وبنيا بهما فى أهلهما . وعادوا جميعا إلى مكة ، وبعد مدة

قصيرة وكانت السيدة آمنة فى الشهر السابع من حملها ، خرج عبدالله فى عير لقريش بتجارة إلى غزة . وتغيب مع رفاقه شهراً . وفى عودتهم مرض عبدالله فى الطريق ، فلما صاروا بالمدينة طلب إليهم التخلف عند أخواله فيها بنى عبد الدار . ومضى أصحابه فقدموا مكة ، وسألهم عبدالمطلب عنه فقالوا : خلفناه عند بنى النجار مريضاً . فبعث إليه الزبير بن عبدالمطلب (شقيق عبدالله) فوجده قد توفى ودفن . فعاد وأخبر أباه عبدالمطلب ، فجزع لذلك أشد الجزع وحزن بنو هاشم لموته ، وقد خلف عبدالله خمسة من الجمال ، وقطعة من الغنم وجاريه بركة الحبشية « أم أيمن »

محمد صلى الله عليه وسلم

مولده :

ولما أتمت السيدة آمنة حملها وجاءها المخاض نهار الإثنين ، ثامن يوم من ربيع الأول فى دارها . وعندها الشفاء ، أم عبد الرحمن بن عوف وأم أيمن جارية عبد الله ؛ وضعت طفلا أبيض الوجه فى عينيه حمرة ، وأرسلت أمه وراء جده عبد المطلب ، وكان يطوف بالكعبة فجاء مسرعا فقالت له : « يا أبا الحرث ولد لك مولود » . ورفعته إليه فأخذه فرحاً ودخل به الكعبة تبركا وطاف بها ، ووقف يدعو الله وجماعة من أهله خلفه يؤمنون على دعائه وجاءها فدفعه إليها ، وأخبرها بأنه قد سماه « محمد » .

وفى ليلة مولده امتلأت السماء بالشهب ، وأرسلت متتالية وبكثرة شديدة . وكان مثل هذا يعتبره العرب إشارة إلى ظهور ملك أو موت ملك . وفى اصطلاح الناظرين فى علم الفلك والنجوم ؛ دليل على حدوث اضطراب فى عالم الأرض أو تهييج أو انتقال عام بين المستعمرين ، وفى حال حدوث أوبئة عامة

أو عند ظهور مولود سعيد يدل على أن له كبير تأثير فى الأرض ، بناء على أن أجرام العالم العلوى مرتبطة بالعالم الأرضى ارتباط نظام وتأثير . وعندهم أنه لا توجد حركة عالمية إلا كانت مسبوقة الإيجاد بما يدل عليها من حركات فى النجوم .

إرضاعه :

ولبث الطفل ليلتين لا يرضع ، ثم أرضعته بعد أمه ثويبة جارية أبى لهب ابن عبد المطلب . وذهبت فأخبرت سيدها بولد عبدالله فأعتقها لوجود عوض فى المولود عن أخيه ، ولاهتمام العرب بالبنين

وكان من عادة العرب أن يروا عاراً على المرأة أن ترضع ولدها ، ويجتهدون فى أن تكون المرضعة من غير قبيلتهم . ومن رأيهم أن ذلك أنجب للولد ، وكان المرضعات من النساء الفقيرات يخرجن فى طلب إرضاع أولاد الأمراء والأغنياء ، التماساً للانتفاع الحال ، وحرصا على أن يكنّ قد صنعن مع آباء الأولاد شبه معروف يستعضن عنه من كرامتهم . فوفد على مكة نسوة من بنى سعد (بطن من بنى بكر بن هوازن) وفيهن حليمة بنت أبى ذؤيب وتكنى أم كبشة . وعلم عبدالمطلب بقدوم وفد المرضعات ، فخرج بنفسه يتخير مرضعة لابن ولده ، واستقبلته حليمة فسألها عن اسمها ، فقالت « حليمة من بنى سعد » وكان كغيره من العرب يتفاءل ، فتبسم وقال : « بخ بخ حلم وسعد ! خصلتان فيهما خير الدهر وعز الأبد » ومشى معها فأدخلها بيت السيدة آمنة فرحبت بها ودفعته إليها ، فأخذته وعادت إلى قومها . وكانت فى فقر فأرخت « زاد خيرها » ومضت سنتان وفصلته وكان فى بنى سعد عزيزاً مكرما ، ولحليمة وزوجها وأولادها محبوباً . وقد وجد مع هذا من جودة المناخ وصفاء الطقس ما ناسب ، فجعل يشب بأكثر من عادة أمثاله ، ولم يقطع سنيه حتى كان غلاما

قوياً يرمى السهام مع الصبيان ويتكلم الفصيح . ولما بلغ السنتين قدمت به حليمة على أمه بمكة وقالت لها حباً فيه : « دعيني يا سيدتى أرجع به هذه السنة الأخرى ابتعاداً به عن أذى هذه التربة» فقالت السيدة : « لا بأس فارجعى به على الفور فإنى أخاف عليه وباء مكة » فرجعت به حليمة . ولما ترعرع كان فى بنى سعد يخرج فيرى الصبيان يلعبون فيجتنبهم . ورأى البيت فارغا على مرضعته فقال لها : « يا أماه مالى لا أرى إخوتى نهاراً » قالت : « فدتك نفسى إنهم يرعون غنما لنا فيروحون من ليل إلى ليل » قال : « ابعثينى معهم » فكان من ذلك العهد يخرج معهم .

ولما بلغ الرابعة من سنيه رأته حليمة يتغيب عن إخوته نهاراً ويتخلف عنهم ليلا . وكانت قد توجست حسد القوم له . وأتاها الحرث زوجها فقال : « أرى أن تردّى محمداً على أمه ، والله إن أصابه ضر فما هو إلا حسد من آل فلان لما يرون من عظيم بركته » قال لها بعض بنى سعد : « يا حليمة رديه على جده واخرجى من أمانتك » فقدمت حليمة به . ولما كانت على مقربة ضلته فى أعالى مكة . فأتت جده عبد المطلب فقالت : « لقد قدمت بمحمد الليلة ، ولما كنت بأعالى مكة أضلنى ، فوالله ما أدرى أين هو » وكان عبد المطلب كثير الفزع إلى الله كلما عن له أمر . فقام يدعو الله أن يرده عليه . وما جثم أن نهض متعجلا وتبعه ورقة بن نوفل فوجدا محمداً قائماً تحت شجرة يجذب غصناً من أغصانها واستغربا من حاله أن يكون هو . فاقترب منه ورقة وسأله : « من أنت ياغلام ؟ فقال : « محمد بن عبد الله بن عبد المطلب » فأكب عبد المطلب عليه يعتنقه ويبكى ويقول : « أنا عبد المطلب جدك فدتك نفسى ، ثم رجعا به إلى مكة » .

ودخلت به حليمة على أمه فقالت لها مذ رأتها : « ما أقدمك ياظئر (أى يامرضعة) لقد كنت حريصة عليه وعلى مكثه عندك » قالت حليمة: « قد بلغ الله ، وتخوفت عليه الأحداث ، فأديته إليك كما تحبين » قالت السيدة : « كلا والله ماللشيطان على ولدى سبيل ، دعيه عنك ، وانطلقى راشدة » .

تربيـة محمـــد

ومن ذاك اليوم احتضنته أمه وكفله جده ، فكان لا يقدم اليه طعام إلا قال : « على بابنى » فاذا حضر أجلسه إلى جنبه ، وربما أقعده على فخذه فيؤثره بأطيب الطعام .

حتى إذا وافت السنة السادسة من عمر محمد وكانت أمه فى زيارة أخواله بنى النجار ومعها أم أيمن بركة الحبشية جارية عبدالله . مكثت شهراً ومرضت فى طريق عودتها إلى مكة فماتت ودفنت بالأبواء ، واحتضنت محمداً أم أيمن بركة . وعادت به إلى مكة بعد وفاة أمه بخمسة أيام . فأخبرت جده بوفاة أمه فحزن عبدالمطلب حزناً شديداً وضمه اليه ورق عليه رقة لم يرقها على ولده . ومن ذاك الحين كان محمد يدعو أم أيمن بأمه .

وكان لعبد المطلب فراش يوضع له فى ظل الكعبة لايجلس عليه أحد من أهل بيته ولا من أشراف قريش إجلاله له . وكان بنوه وسادات قريش يحدقون به . فجاء محمد وهو فى سن السابعة حتى جلس عليه ، فأخذه أعمامه ليؤخروه عنه . فقال عبد المطلب : « دعوا ابنى يجلس فانه يحس من نفسه الشرف » ثم أجلسه معه ومسح على ظهره . وسره مارأى منه .

وفى هذه السنة استنقذ ملك اليمن سيف بن ذى يزن الحميرى ملكه من

أيدى الحبشة، وكانوا قد اغتصبوه من حمير، وبقى فى حكم الحبشة سبعين سنة . وجاءت وفود العرب لتهنئته. وبالجملة قريش وفيهم عبد المطلب وأمية بن عبد شمس وعبدالله بن جدعان التيمى وأغلب وجهاء قريش . وكان الملك سيف فى قصره بصنعاء . فأذن لهم فدخلوا عليه وحوله أشراف اليمن . فقام عبد المطلب خطيباً فقال : «إن الله عز وجل أحلك أيها الملك محلا رفيعاً شامخاً عالياً منيفاً. وأنبتك نباتا طالت أرومته . وعظمت جرثومته (الأرومة والجرثومة الأصل) وثبت أصله . وبسق (طال) فرعه . فى أطيب موضع . وأكرم معدن . وأنت أبيت اللعن (أى أبيت أن تأتى من الأمور ما يلعن عليه) ملك العرب الذى له تنقاد عمودها الذى عليه العماد . وكهفها الذى يلجأ اليه العباد . سلفك خير سلف . وأنت لنا فيهم خير خلف . فلن يهلك خبر من أنت خلفه . ولا يخمل ذكر من أنت سلفه . نحن أهل حرم الله وسدنة بيته . أشخصنا (أحضرنا) اليك الذى أبهجنا من كشف الكروب التى فدحت (أثقلت) فنحن وفد التهنئة لا وفد الترزئة (التعزية) ، قال الملك «من المتكلم؟» قال «عبد المطلب بن هاشم» قال «ابن أختنا؟» قال : «نعم» قال «أدنه» ثم أقبل عليه وعلى القوم، فقال : «مرحباً وأهلا ونافة ورحلا ، ومستناخا سهلا ، وملكا رحبا (عطاء كثيرا) يعطى جزلا ، قد سمعت مقالتكم ، وعرفت قرابتكم ، وقبلت وسيلتكم ، فأنتم أهل الليل والنهار ولكم الكرامة ما أقمتم ، والحباء (العطاء) إذا ظعنتم ، فانهضوا إلى دار الضيافة» فقاموا وأجرى عليهم القرى شهراً لا يصلون اليه ، ولا يؤذن لهم بالانصراف وأرسل إلى عبد المطلب فأدناه . وقال عبد المطلب : «إنى مفض اليك من سر على أمراً لو غيرك يكون لم أبح له به . ولكن رأيتك معدنه ، فأطلعتك طلعه فليكن عندك مخبأ حتى يأذن الله عز وجل ، إنى أجد فى الكتاب المكنون ، والعلم المخزون، الذى ادخرناه لأنفسنا ، واحتجبناه (كتمناه) دون غيرنا خبراً

عظيما ، وخطراً جسيما ، فيه شرف الحياة ، وفضيلة الوفاة ، للعرب عامة ، ولرهطك كافة ، ولك خاصة » قال عبد المطلب : «مثلك أيها الملك من سر ، وبر ، فما هو فداك أهل الوبر . زمرا بعد زمر ؟» . قال : «إذا ولد من تهامة غلام بين كتفيه علامة ، كانت له الامامة ، ولكم به الزعامة (السيادة) إلى يوم القيامة» قال عبد المطلب : «أبتُ (رجعت) بخير ما آب بمثله وافد قوم ، ولولا هيبة الملك وإجلاله وإعظامه ، لسألته فى مسارة (مسارتة) إياى ما أزداد به سرورا» . قال الملك : «هذا حينه الذى يولد فيه ، أوقد . ولد اسمه محمد ، يموت أبوه وأمه . ويكفله جده وعمه . سيبعثه الله جهارا ، ويجعل له منا أنصارا . يعز بهم أولياءه ، ويذل أعداءه ، ويضرب بهم الناس عن عرض (جميعاً) ويستفتح بهم كرائم الأرض . يعبد الرحمن ، ويدحض (يبطل) الشيطان ، ويخمد النيران ، ويكسر الأوثان . قوله فصل ، وحكمه عدل ، يأمر بالمعروف ويفعله ، وينهى عن المنكر ويبطله » قال عبد المطلب : «جد جدك . ودام ملكك . وعلا كعبك . فهل الملك سارى بافصاح ، فقد وضح لى بعض ايضاح» قال : «والبيت ذى الحجب والعلامات على النقب (الطرف) إنك لجده يا عبد المطلب ، غير كذب» فخر عبد المطلب ساجداً ، فقال : «ارفع رأسك . ثلج صدرك . وعلا كعبك . فهل أحسست بشىء مما ذكرت لك ؟ قال : «نعم أيها الملك ، إنه كان لى ابن كنت به معجباً وعليه رفيقاً (مشفقاً) زوجته من كرائم قومى ابنة وهب بن عبد مناف بن زهرة . فجاءت بغلام سميته محمداً . ومات أبوه وأمه ، وكفلته أنا وعمه» قال الملك : «إن الذى قلت لك كما قلت . فاحتفظ بابنك . واحذر عليه اليهود ، فانهم أعداؤه ، واطو ماذكرت لك ، عن الرهط الذين معـــك . فانى لا آمن أن تدخلهم النفاسة ، فى أن تكون له الرياسة . فينصبوا له الحبائل ، ويبغوا له الغوائل . وسيفعلون ذلك وأبناؤهم من غير شك . ولولا أنى أعلم أن الموت مجتاحى

(مهلكى) قبل مبعثه . لسرت بخيلى ورجلى حتى أصير بيثرب دار ملكه ، فإنى أجـــد فى الكتاب الناطق ، العلم السابق أن يثرب دار ملكه واستحكام أمره . وأصل نصرته ، وموضع قبره . ولولا أنى أقيه الآفات ، وأحذر عليه العاهات . أعلنت من حداثة سنه أمره . وأعليت على اسنان العرب كعبه . وسأصرف ذلك إليك من غير تقصير بمن معك » ثم دعا بالقوم وأجزل لهم المنح ، وأعطى عبدالمطلب قدر ماأخذ الجميع . وقال له : « إذا جاء الحول ، فأتنى بالخبر . وما يكون من الأمر » (فمات الملك قبل أن يحول الحول) وعاد القوم فنظر عبدالمطلب فرأى على القرشيين كآبة من تميز الملك له بالعزلة وكثير العطايا . فقال : «لا يغبطنى رجل منكم بجزيل عطاء الملك ، ولكن يغبطنى بما سارنى به ، مما يبقى لى ذكره ولشعبى ، وستعلمون نبأ ذلك بعد حين»

ورجع عبد المطلب وكل عنايته منصرفة إلى محمد الذى كان وهو فى الثامنة شديد الميل إلى العزلة تواقاً إلى الانفراد . وغفلت عنه أم أيمن حاضنته يوما . و فيما هى تتساءل عنه رأت عبد المطلب قائماً على رأسها ويد محمد فى يده . وقال : « يا بركة ، أتدرى أين وجدت ولدى ؟ » قالت : « لا أدرى » قال : « وجدته قريباً من السدرة ، فلا تغفلى عن ابنى فان له خصوما »

وأصاب قريشاً جدب أيبس الجلد وأرق العظم ، فراحوا يهرعون إلى الأصنام ويلتمسون بوساطتها فرجا من ضيقهم ، فلم يفلحوا . ورجعوا فطافوا حول عبد المطلب وقامت عنده قريش ، وانفض إليه من كل بطن رجل ، فقام ومعه محمد قد أيفع (ارتفع) أو كرب (قرب) ودعا فقال : «اللهم سادّ الخلة ، وكاشف الكربة . أنت عالم غير معلم ، ومسئول غير مبخّل . وهذه عبيدك وأماؤك بفدرات (أفنية) حرمك ، يشكون اليك سنتهم التى أقحلت (أيبست) الظلف والخف . فأمطرنا اللهم غيثاً سريعاً مغدقاً » فانفجرت السماء بالماء . وكظ (ضاق) الوادى بثجيجه (سيله) .

ولما سقوا لم يبلغ المطر بلاد قيس « ومضر » فاجتمع عظماؤهم إلى عبدالمطلب فقالوا : « قد أصابتنا سنة مجدبة وقد بان لنا أثرك ، وصح خيرك . فاشفع لنا عند من شفعك ، وأجرى الغمام لك » قال عبدالمطلب : « لكم الطاعة ، وموعدكم غداً عرفات » ثم أصبح غادياً ، وخرج معه الناس وولده ومحمد ، فأقامهم صفاً ومحمد أمامه ، وقال : « اللهم رب البرق الخاطف ، والرعد القاصف . رب الأرباب ، وملين الصعاب ، هذه قيس ومضر ، من خير البشر . قد شعثت رءوسها ، وحدبت ظهورها . تشكو اليك شدة الهزال ، وذهاب النفوس والأموال ، اللهم فأتح (هيىء) لهم سحاب الماء ، وعين السماء لتضحك أرضهم ، ويزول ضرهم » فلم يفرغ حتى رأى السحب تمر . فقال : « معاشر قريش ومضر ، انصرفوا فقد سقيتم » .

ولما حضرت عبد المطلب الوفاة أوصى على محمد ابنيه أبا طالب والزبير ابن عبد المطلب ، وشيعت جنازته قريش وأبناوه . وبكى محمد خلف سريره بكاء مراً ولم يبك أحداً بعدموته ما بكى عبدالمطلب بعد موته . ولم تقم بمكة سوق مدة مديدة .

أبو طالب

وكفل محمداً بعدعبدالمطلب عمه أبوطالب ، وكان شفوقا به محباً له . وكان مقلامن المال . فكان أولاده إذا أرادوا أن يتغدوا أو يتعشوا قال لهم : « كما أنتم حتى يأتى ولدى » فاذا أتى وأكل معهم فضل فى طعامهم القليل معظمه . فيقول أبوطالب : « إن ولدى لمبارك » وكان محمد لا يشكو من الجوع والعطش ، وكان إذا أصبح يغدو فيشرب من زمزم ، فربما يعرض عليه الغداء فيمتنع .

وكان لأبى طالب وسادة يجلس عليها كأبيه . فجاء محمد فجلس عليها ، فتبسم أبوطالب سروراً بفعله ، وقال : « إن ابن أخى ليخبر بشرف عظيم » .

وحدث فى قريش قحط فقال قائل : «اعتمدوا اللات والعزى» . وقال آخر : « اعتمدوا مناة » فقال شيخ منهم وسيم الطلعة : « أنى تؤفكون (تصرفون) عن الحق ، وفيكم بقية ابراهيم واسماعيل ، فكيف تعدلون عنه إلى ما لا يجدى ؟ » قالوا : « كأنك تعنى أبا طالب ؟ » قال : « إيهاً » فقاموا بأجمعهم فقالوا : «يا أبا طالب أقحط الوادى » وأجدب العيال . فاستسق لنا فخرج أبو طالب ومعه محمد وهو غلام وحوله غيلمة (جمع غلام) فأخذه أبو طالب فألصق ظهره بالكعبة ولاذ (طاف) الغلام بأصبعه (مر بأصبعه حول رأسه) فأقبل السحاب من هنا ومن هنا ، واغدودق مطره (كثر) وانفجر الوادى ، وأخصب الحاضر البادى .

وإن رجلا من لهب كان قائفاً ، وكان إذا قدم مكة أتاه رجال قريش بغلمانهم ينظر فيهم ويقتاف لهم ، فأتاه أبوطالب ومعه محمد . فنظر إليه وشغل عنه بشىء فلما فرغ قال : « علىّ بالغلام ، وجعل يقول : ويلكم ردوا علىّ الغلام الذى رأيت آنفاً ، فوالله ليكونن له شأن » ورأى أبو طالب حرصه على ابن أخيه فغيبه وانطلق به .

واختار محمد وهو فى سن العاشرة أن يرعى غنم عمه وأهله بلا أجر كعادة غلمان العرب . ورأى أبا طالب يتهيأ للسفر بتجارة إلى الشام . فطلب اليه أن يرافقه فأردفه خلفه وسافرا ، فنزلا على صاحب دير استخبر أبا طالب عن محمد . فقال : «إنه ابنى» قال : ماهو بابنك ، وماينبغى أن يكون لهذا الغلام أب حى لأنه يكون يتيما من أبويه ، ويعطى النبوة» قال أبو طالب : «وما النبى؟»

قال : «الذى يأتيه الخبر من السماء لأهل الأرض. قال أبو طالب : «سبحان الله، الله أجل مما تقول»، والتفت إلى محمد فقال : «ألا تسمع ما يقول ؟» قال محمد : «أى عم ، لا تنكر لله قدرة ، والله أعلم» .

وسارا مع الركب ، فلما نزل بصرى وبها الراهب بحيرا . وكان لا يكلم المارّة ، وقد بدا له شىء ، فطلب اليه القرشيين وطلب إلى أبى طالب غلامه فأحضره فجعل بحيرا يلحظه ، وقال: «أسألك باللات ومناة إلا أخبرتنى» ، قال محمد: «لا تسألنى باللات ومناة فوالله ما أبغض شيئاً بغضهما» . فجعل يسأله عن حاله فى نومه وهيأته وأموره ومحمد يجيبه ، ثم قال لأبى طالب : «ارجع بابن أخيك ، فإنى أخشى عليه الأذايا» فرجع به أبو طالب من فوره .

ورجع محمد مكة فأخذ يرعى الأغنام بالأجرة . ويبتعد بها فى الفضاء ميلا منه إلى الوحدة ، وقد عرف فى القوم بحسن الأخلاق ، وصدق الحديث ، والأمانة ، وكرم المخالطة ، واجتناب الدنايا .

شبوبة محمد

فلما بلغ حداً فى الشبوبة ، قال يوماً لجاره فى الرعاية : «أبصر لى غنمى حتى أسمر هذه الليلة بمكة كما يسمر الفتيان» فأجابه . فخرج حتى إذا جاء أدنى دار من دور مكة سمع غناء وصوت دفوف ومزامير ، وسأل فقيل قد تزوج فلان بفلانة — لرجل من قريش — فجلس يلهو بما يسمع . وغلبه النعاس فلم يوقظه إلا حر الشمس ، ورجع إلى صاحبه الراعى فأخبره الخبر . وفعل مثل هذا فى الليلة الثانية .

وكانت بوانة صنماً تعظمه قريش ، وتذبح له وتحلق عنده ، وتعكف عليه

يوماً إلى الليل فى كل سنة . فكان أبو طالب يحضر ذلك مع قومه ويطلب من محمد أن يحضر ذلك العيد فيأبى . فلما كان فى مثل هذا اليوم من سنة دعاه أبو طالب وحوله عماته . جعلن يقلن له فى غضب : إنا لنخاف عليك مما تصنع من اجتناب آلهتنا ، فما تريد أن تحضر لقومك عيد ولا تكثّر لهم جمعاً ، ولا زالوا به حتى ذهب وغاب عنهم ماشاء الله ، ثم رجع مرعوباً فزعاً فقلن له : « مادهاك ؟ » قال « أخشى أن يكون بى لَمَم » (مس من الشيطان) فقلن ما كان الله عز وجل ليبتليك بالشيطان ، وفيك من خصال الخير مافيك . فما الذى رأيت ؟ » فقال : « إنى كلما دنوت من بُوانة تمثل لى من يصيح بى ؛ وراءك لاتمسه » فعذرنه ، وما عاد إلى عيد لهم بعد ذلك .

متاجرة محمد لنفسه

وقام فى تجارة بالاشتراك مع السائب بن أبى السائب إلى حباشة (على بعد ست ليال من مكة) . فاشترى بزاً (ثياباً) وعاد فابتاعها بمكة . وكان السائب كثيراً مايقول نعم الشريك محمد ، : « لايدارى ولايمارى ولا يشارى » (المشاراة المشاحة واللجاج) .

ثم ذهب بعدها بتجارة البز أيضاً بمفرده إلى حُباشة ، وعاد فابتاع منه ما اشتراه حكيم بن حزام (ابن أخى عم خديجة) .

متاجرته لخديجة

وذاع خبر شغل محمد بالتجارة ، وماحصل عليه من الربح ، وقد عرف فى القوم بأنه الصادق الأمين . فجاءه أبو طالب وقال له : « يا ابن أخى أنا رجل لا مال لى . وقد اشتد الزمان (أى قحط) وألحت علينا سنون منكرة . وليس

لنا مادة ولا تجارة . وهذه عير قومك قد حضر خروجها إلى الشام. وخديجة بنت خويلد تبعث رجالا من قومك فى عيراتها ، فيتجرون لها فى مالها ويصيبون منافع ، فلو جئتها فوضعت نفسك عليها لأسرعت اليك وفضلتك على غيرك ، لما عرف من طهارتك ، وإن كنت لأكره أن تأتى الشام ، وأخاف عليك من اليهود ، ولكنى لا أجد لك من ذلك بداً » قال محمد : « ولعلها أن ترسل إلىَّ فى ذلك » . قال أبو طالب : «أخاف أن تولى غيرك فتطلب أمراً مدبراً» . وافترقا . وبلغ خديجة ما كان من محاورة أبى طالب له . فقالت : « ما علمت أن محمداً يريد هذا » وأرسلت اليه . فقالت : «دعانى من البعثة اليك ما بلغنى من صدق حديثك وعظم أمانتك وكرم أخلاقك ، وأنا أعطيك ضعف ما أعطى رجلا من قومك إذا كنت راغباً فى العمل بتجارتى » فأجاب . وكانت تجارة خديجة قد قامت إلى الشام . فأمرت غلامها ميسرة فسار مع محمد إلى حرش (بلد من أطراف اليمن فيما يلى الحجاز) واشترى منها بزاً ورجع وما غاب إلى مكة فربح ربحاً حسناً . فجهزته للسفر ثانية إلى الشام وقالت لميسره : « لا تعصى لمحمد أمراً ، ولا تخالف له رأياً ، واجعل عمومته يوصون به أهل العير» فسار حتى نزل بصرى بقرب صومعة نسطورا الراهب (كبير فرق النسطوريين النصارى) وكان يعرف ميسرة من تردده عليه . وسأل محمداً أسئلة وأجاب عليها . وحضر محمد سوق بصرى فباع سلعته التى خرج بها وربح ربحاً زائداً . وثم حدث بينه وبين رجل خلاف فى سلعة . فقال الرجل : « احلف باللات والعزّى» قال محمد : «ما حلفت بها قط ! » فبهت الرجل فيه طويلا ثم قال: «قنعت والقول قولك» وخلا الرجل بميسرة فقال : «إن هذا الشاب غير عادى، وإن له لشأناً » فأحب ميسرة محمداً حباً شديداً . فكان كأنه عبده حتى رجعا. وأخبر ميسرة خديجة بما رأى من محمد فزادت أجره .

زواج محمد بخديجة

وكانت خديجة امرأة حازمة جلدة قوية شريفة ومن أوسط (أعرق) نساء قريش نسباً وأعظمهم شرفا وأكثرهم مالا وأحسنهم جمالا . وتلقب فى الجاهلية بالطاهرة وسيدة قريش . وكان كل قومها حريصاً على الزواج بها لو قدر . وقد طلبوها وذكروا لها الأموال فلم تقبل . حتى إذا كان بعد رجوع محمد من الشام أتته مُنية أخت يعلى بن ؛ مُنْيَة مرسلة فى الخفاء من خديجة فسارّت محمداً بقولها : « ما الذى يمنعك أن تتزوج ؟ قال : « ليس بيدى ما أتزوج به » قالت : « وإن كفيت هذا ، ودعيت إلى المال والجمال والشرف الكفاية ، ألا تجيب ؟ » قال : « فمن هى ؟ » قالت : « خديجة » قال « وكيف لى بذلك وأنا أفعل ؟ » قالت : « ذلك هو » وذهبت فأخبرت خديجة فاستدعته وحضر . فأخذت بيده فقبلتها وقالت : « بلغنى ماذكرت لمنية ، وقد رغبت فيك يا ابن عم لقرابتك وأمانتك وحسن خلقك وصدق حديثك » فذهب وذكر ذلك لأعمامه . فنهض للأمر أبو طالب وحمزة وجماعة من بنى هاشم . وأرسلت خديجة فحضر إليها عماها عمرو بن أسد وورقة بن نوفل ونفر من قريش . وقام أبو طالب خطيباً فقال : « الحمد لله الذى جعلنا من ذرية إبراهيم ، وزرع إسماعيل وضئضىء (معدن) معد وعنصر (أصل) مضر . وجعلنا حضنة بيته ، وسواس حرمه . وجعله لنا بيتاً محجوجا وحرماً آمناً . وجعل فينا الحكم للناس . ثم إن ابن أخى هذا محمد بن عبدالله لا يوزن به رجل إلا رجح به شرفاً ونبلا ، وفضلا وعقلا . وإن كان فى المال قل ، فان المال ظل زائل . وأمر حائل . وعارية مسترجعة . وهو والله بعد هذا له نبأ عظيم وخطر جليل ، وقد خطب إليكم رغبة فى كريمتكم خديجة وأصدقها عشرين بكرة » . قال عمرو بن أسد : « محمد الفحل الذى لا يفدع أنفه »

(لا يضرب على أنفه ليرد عن الناقة) وقام ورقة بن نوفل فقال : « الحمد لله الذى جعلنا كما ذكرت ، وفضلنا على ماعددت . فنحن سادة العرب وقادتها ، وأنتم أهل ذلك كله لاينكر العرب فضلكم ، ولا يرد أحد فى الناس نخركم وشرفكم وقد رغبنا فى الاتصال بحبلكم وشرفكم . فاشهدوا معشر قريش أنى قد زوجت خديجة بنت خويلد من محمد بن عبد الله » وذكر المهر . فقال أبو طالب : « وأحب أن يشركك عمها » فقال عمرو : « اشهدوا علىّ معشر قريش أنى قد أنكحت محمد بن عبد الله خديجة بنت خويلد » وبذلك تم الأمر .

بناء الكعبة

كان ارتفاع بناء الكعبة إلى هذا الوقت تسعة أذرع ، ولم يكن لها سقف . وكان حولها ردم قديم ، وجاء السيل فأخرب الردم وأزال بعضه . وأرادت قريش هدمها وتشييد بنيانها ورفع أبوابها . واجتمعت قبائل قريش تنقل الحجارة كل قبيلة تنقل على حدة . وبدأ أبو وهب عمر بن عابد (خال عبدالله ابن عبد المطلب وكان شريفاً . فتناول حجراً فسقط من يده . فذعر ونادى فى القبائل : « يامعشر قريش لاتدخلوا فى بنيان البيت شيئاً أصبتموه غصباً ، ولا قطعتم فيه رحماً ، ولا انتهكتم فيه حرمة أو ذمة بينكم وبين أحد من الناس » وذهب الناس ينقلون الحجارة ويرفعون أزرهم على عواتقهم فتعرى أنصاف أفخاذهم . فقال العباس بن عبد المطلب لمحمد : « اجعل إزارك على رقبتك يقيك الحجارة » ففعل فخر مغشياً عليه . فضمه العباس إليه وأفاق محمد فجعل يقول إزارى أزارى ! فشد عليه إزاره وسأله العباس عن شأنه فأخبره بأنه أزعج بصوت يقول له : « أشدد عليك إزارك » فلما كان فى اليوم بعده نسى العباس فطلب إلى محمد رفع إزاره . فقال محمد : « ما أصابنى ما أصابنى إلا من التعرى ! » وعمدوا إلى هدم

الكعبة على حذر وشفق ، فقال الوليد بن المغيرة : « أتريدون بهدمها الإصلاح أم الإساءة ؟ » قالوا : « بل الإصلاح » قال : « فان الله لا يهلك المصلحين . ثم أخذ المعول ، وقام : « وهو يقول اللهم لم نرغ » ثم هدم من ناحية الركنين ، فتربص الناس ليلتهم وقالوا : « ننظر فان أصيب الوليد لم نهدم منها شيئاً ورددناها كما كانت ، وإن لم يصبه شيء هدمناها فقد رضى الله ما صنعنا » فأصبح الوليد غادياً إلى عمله فهدم والناس معه ، حتى انتهوا إلى الأساس . وأخذوا فى بنائها فلما بلغوا منه موضع الحجر اختصموا كل قبيلة أن تريد أن ترفعه إلى موضع وبقى النزاع على هذا إلى خمس ليال . ثم اجتمعوا فى البيت ، وكان أبو أمية ابن المغيرة أسن قريش كلها يومئذ (وهو أحد أجواد قريش) فقال : « يا معشر قريش اجعلوا بينكم فيما تختلفون فيه ، أول من يدخل من باب هذا المسجد (وأشار إلى باب شعبة ، وهو الآن باب السلام) ليقضى بينكم » فرضوا ، فكان محمد أول داخل ، فلما رأوه قالوا : « هذا الأمين ، وقد رضيناه حكما » وأخبروه الخبر فوضع إزاره مبسوطا على الأرض وأخذ الحجر الأسود فوضعه فيه . وقال : « لتأخذ كل قبيلة بناحية من الأزار وارفعوه جميعاً » ففعلوا حتى بلغوا بالحجر موضعه الآن . فقال رجل من أهل نجد كان ضيفاً بمكة : « عجباً لقوم أهل شرف وعقل ومال ، عمدوا إلى أصغرهم سناً وأقلهم مالا ، فرأسوه عليهم فى مكرمتهم وحوزهم ، كأنهم خدم له ! أما والله ليفرقنهم شيعاً وليقسمن بينهم حظوظا ! » فكاد قوله يثير شراً فيما بينهم .

بقى محمد بعد ذلك زمناً شغل فيه بالتجارة بنفسه ، وبواسطة عمال أجراء ، فيخرج إلى أطراف اليمن مما يلى الحجاز ، ويرسل وكيلا عنه إلى بلاد الشام .

شغل محمد بنفسه

وبلغ سن الأربعين أو حواليها ، فأخذ يرجع إلى عادته فى الطفولة من

كثرة الصمت ، واجتناب المجتمعات ، والابتعاد عن مجالس المقابسات . فكان يرى غارقاً فى التفكير ملتفتاً إلى ما يشغله من خواطر عميقة مستأنساً بنفسيات باطنة كانت تستجره إلى العزلة والانفراد ، فيسر أن يكون فى وحدة إلا فى أحوال ضرورية . فكان يشاهد قائماً أوقاعداً على جبل حرا (بالمد والقصر) ينظر فى السماء بياض يومه ، ويرسله المساء إلى بيته ، واستمر على هذا أياماً .

مبدأ النبوة

وفى هذه الأيام أى أيام بعثته رأى الناس ما هالهم وافترع شجعانهم ، من تغير الأجواء المحيطة بالأرض وسقوط النجوم وتناثر الشهب . وتساقط الصواعق ، وكان من اعتقادات العرب ، أن سقوط الشهب دلالة على ظهور ملك أو موت ملك كما تقدم . ولكن توالى ذلك أخافهم ، فذهب جمع من ثقيف إلى عمرو بن أمية ، وكان معروفاً بسداد الرأى والخبرة بمثل هذه الأمور . فقالوا له : « يا عمرو ، ألم تر ماحدث فى السماء من الرمى بهذه النجوم ؟ » قال بلى ، فانظروا فان كانت معالم النجوم (أى النجوم المعروفة التى يهتدى بها فى البر والبحر ، وتعرف بها الأنواء فى الصيف والشتاء) هى التى يقذف بها . فهو والله طى هذه الدنيا وهلاك هذا العالم ، وإن كانت نجوماً غيرها ، وهى ثابتة على حالها ، فانه لأمر أراد الله بهذا الخلق » .

ورأى بنو لهب فزع ثقيف فاشتد جزعهم ، واجتمعوا إلى خطر بن مالك وكان شيخاً كبيراً ، وأعلم أهل زمانه بالكهانة ، وقد أتت عليه مائتان وثمانون سنة فقالوا : « يا خطر هل عندك علم عن هذه النجوم المقتذفة ، فانا فزعنا لها وخفنا سوء عاقبتها ؟ » فقال : « ائتونى بسحر ، أخبركم الخبر . الضرر . أم لأمن أو حذر ! » فانصرفوا عنه ، وأتوه فى موعده فاذا هو قائم على قدميه شاخص فى السماء .

فنادوه : « ياخطر ياخطر » فأومأ اليهم أن امسكوا . وانقض على أثر قوله نجم عظيم من السماء ، فصرخ الكاهن رافعاً صوته أصابه إصابُهْ (بضم الباء جمع وصب أى ناله شقاؤه) خامره عقابه ، عاجله عذابه . مالهذا العاق . والترصد للاستراق؟ يتعرف من احتكاك الكواكب ، وتقارب المسارب . واحتكاك النجوم ، عن حادث موهوم . وكأنما قد أغلق بابه ، ومنح جوابه . وأحرقه شهابه . ياويله ماحاله؟ بلبله بلباله ، عاوده خباله ، تقطعت حباله ، وغيرت أحواله » ثم أمسك طويلا ، وقال : « أقسم بالكعبة والأركان ، والبلد المؤتمن الستدان (الخدم) لقد منعَ السمعَ عتاة الجان ، بثاقب من ذى سلطان . من أجل مبعوث عظيم الشان ، تبطل به عبادة الأوثان .

ثم عمد محمد إلى غار حراء . وكان غاراً واسع الجوف يعتكف فى ناحية منه معظم اليوم . ويعود إلى الجبل فيمكث قليلا ، ويعود ملتزماً ناحية من الطريق وعيناه مرسلتان إلى الأمام لا يلتفت إلى الطراق ، وبقى على هذا مدة كان مايرى فى نومه أوضح وأصرح من يقظته . يرى الرؤيا الصادقة له ولغيره ، ويحلو له مايشاهد من مناظر تكريم وحفاوة ، فينشرح صدره وتنتعش نفسه .

مبدأ الوحى

وفى يوم بينما كان يسير متباطئا على جبل حراء ، سمع على مرات أصواتاً تناديه : « يا محمد . يا محمد ، ونظر فلم يجد أحداً فعجل العودة قبل الميعاد . ورجع وعلى محياه أثر انقباض مما رأى حتى جاء البيت وقابلته السيدة خديجة زوجته وتفرست حدوث تغيير به وسألته فقال : « إذا خلوت سمعت نداء أن يا محمد ، يا محمد ، وإنى لأخشى أن يكون بى جنون ! » فقالت : « كلا يا ابن عم . ما كان الله ليفعل ذلك بك . فوالله إنك لتؤدى الأمانة ، وتصل الرحم ، وتصدق الحديث »

ثم قامت فأفرغت عليها ثيابها التى تتجمل بها عند الخروج . وانطلقت إلى ورقة ابن نوفل . وكان متعبداً على اليهودية ثم على النصرانية . وقالت : «إن ابن أخيك يخلو بنفسه فيسمع من يناديه يا محمد، يا محمد ، فينطلق شارداً ، قال ورقة «أطلبى له أن لا يفعل إذا أتاه ويثبت حتى يسمع مايقول وائتنى » فعادت وأخبرت محمداً بذلك . ولم يكن ماحدث به من الخوف فى ذلك مانعاً له بل زاد به الميل الى الاستكثار من الوحدة وحب الاعتكاف على العبادة . فبكر العودة إلى غار حراء بعد أن استصحب من زاد يصلح للصدقة وبعضا من كعك وزيت وكان قد اعتاد دخول هذا الغار رغبة التعبد فيه عبد المطلب وورقة بن نوفل وأبو أمية بن المغيرة ، يأوون اليه فيوزعون على بابه صدقات لفقراء تعودوا على تناولها من راغبي التعبد . ويدخلونه أياما ، فوزع محمد ما استصحب من صدقة ودخل الغار فلم يبرحه ست ليال كان فيها يجلس الساعات مفكراً ، ويقوم مثلها شاخصاً ويسجد فلا يرفع إلا بعد ساعات . فاذا فرغ عاد الى بيت خديجة أياما قليلة ولا يلبث أن يتزود ويعود إلى الغار ، وهكذا دام أسابيع لا يرى الناس إلا فى غدوه إلى البيت ورواحه إلى الغار ، وازدادت به الرغبة فتزود إلى شهر انقطع فيه إلى العبادة فى الغار لا يشغل عنها إلا عندما يسمع أصوات المساكين بطلب الصدقات . ويعود إلى ما كان عليه . وعلى هذا الحال بقى زماناً يأتى الغار شهراً فاذا نفد الزاد منه رجع فيدخل الكعبة ويطوف البيت ثم يدخل بيته ويتزود ، ويعود الى الغار .

نزول الوحى

وفيما هو نائم ليلة رأى فى نومه كان صوتا ضخماً من سماء الغار يناديه باسمه ! ونظر فإذا بصورة جميلة قد التحفت بالأنوار ، فصرف عينيه إلى ناحية

من الغار فرأى صورتها ، وقلب نظراته فاذا هى هى . وأصغى فسمع : « محمد : إقرأ : فقال »، « أنا أمى لا أحسن القراءة » فبدا له نور ملأ الغار وغشى بصره واقترب منه فى وسط ذلك النور شبه إنسان احتضنه بشدة وأرسله . وقال : « إقرأ » فقال : « والله ماقرأت شيئاً » ففعل معه كالأول وأرسله . ثم قال : « إقرأ » فقال: « ماذا أقرأ؟ » قال : إقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الإنسان من علق ، إقرأ وربك الأكرم » واستيقظ من نومه على صوت رسول السيدة خديجة . وكانت قد صنعت طعاما فبعثت تستدعيه فانصرف من جواره وجاء البيت فطاف ، ثم دخل بيته واستقبلته السيدة فأخبرها بما رأى . ودخل على الأثر أبو بكر صديقه . فقصت عليه رؤيا محمد ، وقالت : « اذهب ياعتيق بصاحبك إلى ورقة بن نوفل » فأخذ أبو بكر بيده وذهب به إلى ورقة وأخبره برؤياه ، فقال ورقة : « إن مارأيت سر الوحى وهو جبريل ، فياليتنى فيها وأنذر أو اصل وجودها (أى الرسالة لأن مارأى دليل النبوة) شاباً فابلغ فى نصرتها ، وليتنى أكون حياً حين يخرجك قومك! » فقال محمد : « أومخرجى هم؟! » قال: ورقة « نعم لم يأت رجل بما ستجىء به إلا عودى » .

بعد ذلك عاد محمد إلى عبادته فى الغار بأنشط من مواضى عادته مدة . إلى عصر يوم وهو قائم على شط جبل حراء، فرأى وراءه شخصاً جميلا يناديه : « يامحمد أنت رسول الله وأنا جبريل » فتمكث واقترب المنادى منه واستقرأه ماأملاه فقرأه. ثم عاد إلى مكة فبدأ بالكعبة يطوف بها فلقيه ورقة بن نوفل وهو يطوف فبدأه بقوله : « ثم ماذا يابن أخى؟ » فأخبره بمارأى وسمع فقال ورقة : « أبشر فوالذى نفسى بيده إنك لنبى هذه الأمة ، والذى رأيت الناموس الأكبر الذى جاء موسى، وإنك لنبى مرسل ، وستؤمر بعد قليل بالجهاد ، ولئن أدركت ذلك اليوم لأنصرن الله نصراً يعلمه » ثم أدنى منه رأس النبى محمد وقبل يافوخه .

أحوال الوحى

بعد ما مرّ امتنع الوحى عن النبى حوالى شهر تهدئة له وإعداداً لنفسه ، فكثر تردد النبى على الغار والجبل تشوقاً إلى الوحى . ثم عاد فأتاه ، ومن ثم كان يوحى اليه إما مناماً ، وإما يخاطب بمعنى مايوحى اليه فيسمعه من كل جسمه وفى هذه لا يبقى عضو منه إلا اضطرب منزعجاً . وإما لفظاً بواسطة رسول الوحى — وكان هذا يأتيه أحياناً بصفته الملكية فيشعر بثقل وتكلف شاق . وأحياناً يأتيه فى صورة أحد أصحابه أو بصورة مجهولة .

أول التكليف

وأول ما بدأ الوحى بعد العودة قوله : يامحمد إن الله قدأرسلك رسولا إلى الإنس والجن ، فادعهم إلى قول لا إله إلا الله — ثم أخذ بيده ماء فرش به داخل فخذيه . ثم توضأ الوضوء المعروف . ففعل النبى مثله — وقال جبريل هذا هو الوضوء . وقام أمام الكعبة متجهاً إلى بيت المقدس فصلى ركعتين والنبى خلفه يفعل فعله . وقال هكذا الصلاة (أى نوع الصلاة لأنها كانت لم تفرض بعد) — بعد هذا غاب الوحى . وجاء النبى السيدة خديجة وأخبرها فدهشت من الفرح . وتوضأ أمامها ليريها كيف الطهور للصلاة . فتوضأت وقام فصلى بها .

بدء الدعوة

وكان قد أصاب الناس قحط فطلب محمد عمه العباس بن عبد المطلب ، وقال له : إن أخاك أبا طالب كثير العيال . والناس فيما ترى من الشدة . فانطلق بنا إليه لنخفف من عياله فتأخذ واحداً وأنا واحداً — فجاءا اليه فقال أبو طالب :

اتركا لى عقيلا وطالباً واصنعا ما شئتما . وكان أولاد أبى طالب أربعة أكبرهم . طالب وعقيل وجعفر وعلى وهو أصغرهم . فكفل النبي علياً ، والعباس جعفرا . فكان على فى بيت النبي ، فدخل عليه فوجده وخديجة يصليان فقال : ما هذا ؟ قال : دين الله الذى اصطفاه لنفسه وبعث به رسله ، فأدعوك إلى الله وحده لاشريك له وإلى عبادته . وإلى الكفر باللات والعزى . فقال على : هذا أمر لم أسمع به قبل اليوم ، ولست بقاض أمراً حتى أحدث أباطالب . وكره النبي أن يفشى على سره قبل أن يستعلن أمره ، فقال : ياعلى إذا لم تسلم فاكتم هذا ، فلبث على ليلته وأصبح غادياً إلى النبي فأسلم . وجاء فى الليلة التالية أبو طالب ومعه جعفر ولده فوجد النبي يصلى وعلياً عن يمينه . فقال لجعفر : صل جناح ابن عمك فوقف عن يساره .

سير الدعوة

وقد كان النبي يخفى أمره ويدعو الى الله سراً ، واتبعه ناس عامتهم ضعفاء من الرجال والنساء . منهم زيد بن حارثة ربيبه وزوجته وبركة أم أيمن الحبشية حاضنة النبي . وكان إذا حضرت الصلاة خرج مستخفياً ومعه على إلى شعاب مكة فيصليان فيها ، فاذا أمسيا رجعا . ولقى أبو طالب علياً فقال : أى بنى ما هذا الذى أنت عليه ؟ قال : يا أبت آمنت بالله ورسوله وصدقت ماجاء به ودخلت معه واتبعته ، فقال أبو طالب : أما إنه لم يدعك إلا إلى خير فالزمه . ورآهما بعد ذلك أبو طالب يصليان بنخلة (ناحية بقرب مكة) فقال للنبي : يا ابن أخى . ماهذا الذى تدين به ؟ . قال : هذا دين الله ودين ملائكته ورسله ودين أبينا ابراهيم ، بعثنى الله به رسولا إلى العباد . وأنت أحق من بذلت له النصيحة ودعوته إلى الهدى ، وأحق من أجابنى إلى الله تعالى وأعاننى عليه .

فقال أبو طالب : ما بالذى تقوله من بأس ، ولكنى لا أستطيع أن أفارق دين آبائى وما كانوا عليه !

إسلام أبى بكر

وكان أبو بكر (واسمه عبد الكعبة) صديقاً للنبى يكثر غشيانه ومحادثته فى منزله ، وقد سمع قول ورقة له لما ذهب معه اليه ، وكان صدراً معظما فى قريش وعلى سعة من الحال وكرم الأخلاق من رؤساء قريش وموضع مشورتهم ومن أعف الناس وكان كريماً سخياً ومحبباً فى بنى تيم الله عشيرته وعالماً بأنساب العرب . وكان متوقعاً نبوة محمد . فبينا هو مع حكيم بن حزام فى يوم إذ جاءت مولاة لحكيم وقالت له : إن عمتك خديجة تزعم اليوم أن زوجها نبى مرسل مثل موسى ، فانسل أبو بكر وأتى النبى فسأله ، فقص عليه بعثته ، فقال أبو بكر : صدقت بأبى أنت وأمى وأهل الصدق أنت ، أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله . وسمعت السيدة خديجة قوله فخرجت وعليها خمار أحمر . وقالت : الحمد لله الذى هداك يا ابن أبى قحافة ، وسماه النبى عبدالله ولقبه بالعتيق .

السابقون إلى الاسلام

وأسلمت يومئذ أسماء بنت أبى بكر ، وأم الفضل لبابة زوجة العباس بن عبد المطلب . ورقية وأم كلثوم بنتا النبى وكانتا قد خطبتا إلى عتبة وعتيبة ابنى أبى لهب ولم يدخلا بهما . وأسلمت زينب ابنته أيضاً وكانت متزوجة بأبى العاص وكان عظيما فى القوم (وبقيت مع زوجها وذلك قبل أن يشرع تحريم نكاح المشرك للمسلمة) وأسلم بلال بن حمامة معتوق أبى بكر ، وسعدى

بنت كريز العبشمية ، وعمران بن حصين ، وسعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل العدوى ، وزوجته أم جميل فاطمة بنت الخطاب .

إسلام عثمان

وكان عثمان بن عفان من ظرفاء مكة وأغنيائها ، جاء لزيارة خالته سعدى بنت كريز ، فأخبرته خبر النبى ، وكان له مجلس (صحبة) من أبى بكر فجاءه ووجده وحده ، فسأله عن خبر صاحبه فحثه أبو بكر على اتباعه ورغبه فى الاسلام . وفى هذا الوقت مر النبى ومعه على يحمل له ثوباً ، فقام له أبو بكر وعثمان وسار النبى وقعد أبو بكر ومشى عثمان خلف النبى ، فأقبل عليه فقال له : أجب داعى الله تعالى إلى جنته فإنى رسول الله إليك وإلى جميع خلقه . فما تمالك عثمان أن أسلم ، وعاد إلى بيته فاستدعاه عمه الحكم بن أبى العاص ابن أميه (والد مراون بن الحكم) وأوثق كتافه وقال : ترغب عن ملة آبائك إلى دين محمد ! والله لا أحلك حتى تدع ما أنت عليه . فقال عثمان : والله لا أدعه ولا أفارقه — فلما رأى الحكم صلابته تركه .

إسلام الزبير

ولقى أبو بكر الزبير بن العوام فقال له : ما منعك يا ابن العوام أن تدخل فى دين محمد ؟ فلم يراجع وأسلم وذاع إسلامه ، وكان له عم يؤذيه بسبب إسلامه ويدخن عليه بالنار فيقول الزبير : والله لا أكفر أبداً .

إسلام عبد الرحمن بن عوف

وكان عبد العزى (عبد الرحمن) بن عوف كثير الأسفار بالتجارة ، فعاد

مرة ولقى أبا بكر فقال : قدمت على عسكلان بن عواكن الحميرى فجعل يسألنى : هل ظهر فيكم رجل له نبالة ؟ هل خالفكم أحد منكم فى دينكم ؟ فقلت: لا قال أبو بكر : هذا محمد قد بعثه الله فأته . فتركه وذهب إلى بيت خديجة . ورآه النبى فضحك وقال : أرى وجهاً خليقاً أن أرجو له خيراً ، فما وراءك ؟ فأخبره ما تقدم وأسلم ، فسماه عبد الرحمن .

إسلام سعد

وكان سعد بن أبى وقاص (ابن عم السيدة آمنة أم النبى) يطمئن إلى أبى بكر ويأنس به، فلقيه يوماً أبو بكر ودعاه إلى الإسلام وحثه عليه فأجاب وأسلم . وكرهت أمه إسلامه ، وكان سعد باراً بها ، وقالت له : ألست تزعم أن الله يأمرك بصلة الرحم ؟ قال : نعم ، قالت : والله لا أكلت ولا شربت حتى تكفر بما جاء به محمد وتمس أسافاً ونائلة (تتبرك بالصنمين) ومكثت أياماً لا تأكل ولا تشرب . فقال لها : تعلمين والله ياأماه لو كان لك مائة نفس تخرج نفساً نفساً ما تركت دين محمد ، فكلى إن شئت أو لا تأكلى . فلما رأت ذلك أكلت وهجرها ، وجاء يوماً فوجد الناس مجتمعين عليها وعلى أخيه عامر بن أبى وقاص فقال : ماذا ؟ قالوا : إنك أخذت أخاك عامراً فى دين محمد ، وأمك تعطى الله عهداً لا تأكل ولا تشرب حتى تترك دين محمد ، فقال سعد : والله ياأمه لا تستظلين ولا تشربين حتى تنبوئى مقعدك من النار .

إسلام طلحة وآخرين

وقدم طلحة بن عبيد الله التيمى من سفره بالبصرة فلقى أبا بكر وقال : قد أخبرت فى سفرى بأن سيحدث جديد هام فى مكة ، فما ذاك يا ترى ؟ قال :

نعم ، إن محمد بن عبد الله الأمين يدعو إلى الله تعالى ، وقام معه إلى بيت خديجة وقابل النبي وأسلم . وأسلم عبيدة بن الحرث بن المطلب ، وأبو سلمة عبد الله بن عبد الأسد المخزومى وزوجته أم سلمة ، وعثمان بن مظعون الجمحى وأخواه قدامة وعبد الله ، والأرقم بن أبى الأرقم المخزومى . ولقى عبد الله ابن مسعود الهذلى النبي وأبا بكر ، فقال : علمنى ياسيدى ! فمسح النبي رأسه وقال : بارك الله فيك فانك غلام معلم . فأسلم ، وكان النبي بعد ذلك يدنيه ولا يحبسه (يمنعه) وكان كثير التردد على النبي ، ويمشى أمامه إذا مشى ، ويستره إذا اغتسل ويوقظه إذا نام ، ويلبسه نعليه إذا قام ، وإذا جلس أدخلهما فى ذراعيه ، حتى كان الصحابة يدعونه بصاحب سر النبي .

وكان جندب بن جنادة (بضم الجيم فيهما) الملقب بأبى ذر الغفارى موحداً ومتنسكا ، فبلغه خبر النبي فقال لأخيه أنيس : انطلق إلى هذا الرجل فكلمه وائتنى بخبره ، فذهب وعاد يقول : لقد والله رأيت رجلا يأمر بخير وينهى عن شر ويشدد على مكارم الأخلاق ، فأتى أبو ذر مكة وطاف بالبيت فرأى النبي يصلى . فجاءه وقال : السلام عليك (وهو أول من حيا بها) قال النبي : عليك السلام ، من الرجل ؟ قال : أبو ذر الغفارى ، وأسلم ، قال النبي : اكتم هذا الأمر وارجع إلى قومك فأخبرهم . فاذا بلغك ظهورنا فأقبل . قال أبو ذر : والذى بعثك بالحق لأصرخن بهذا بين ظهرانيهم ، وذهب فوقف على جموع قريش فى الكعبة ، ونادى بأعلى صوته : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمداً رسول الله ، فمال أهل الوادى عليه بالعصى والحصى حتى خر مغشياً عليه ، فأكب العباس بن عبد المطلب عليه وقال للناس : ويلكم ألستم تعلمون أنه من غفار ، وأن تجارتكم عليهم ، فخلوا عنه ، فجاء أبو ذر بئر زمزم وغسل عنه الدماء ، وفى الصباح رجع إلى مثل فعلته ، فصنعوا به كالأول ،

وأدركه العباس وخلصه ، فرجع إلى أنيس أخيه فوجده قد أسلم ، وأتيا أمهما فأسلمت وأسلم من قومها النصف .

ورأى خالد بن سعيد بن العاص رؤيا ، فأتى فى الصباح أبا بكر فذهب به إلى النبي وقال : ما تدعو إليه ؟ قال : أدعو إلى الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله (قبل أن يشرع غيرها) وتخلع ما أنت عليه من عبادة حجر ، لا يسمع ولا يبصر ، ولا يضر ولا ينفع . فأسلم خالد ، وبلغ إسلامه أباه سعيد بن العاص وكان من عظماء قريش ، فأرسل فى طلبه وانتهره وضربه بمقرعة كانت فى يده حتى كسرها على رأسه . وقال : اتبعت محمداً وأنت ترى خلافه لقومك ، وأنسيت ما جاء به من عيب آلهتهم ومن مضى من آبائهم ! ؟ قال خالد : اتبعته والله على ما جاء به ! فغضب أبوه ، وقال : اذهب يا لكع حيث شئت ، والله لأمنعنك القوت . قال : إن منعتنيه فالله يرزقنى ما أعيش به . فأخرجه وقال لبيته : لا يكلمه أحد منكم إلا صنعت به مثله ، وانصرف خالد فلزم النبي يعيش معه ويغيب عن أبيه فى نواحى مكة ، ومرض سعيد فنذر إن شفى لا يعبد إله ابن أم كبشة لقب حليمة المرضعة . وخالد هذا أول من كتب بيده : بسم الله الرحمن الرحيم ، وبعد ذلك أسلم إخوته عمرو وأبان والحكم الذى سماه النبي ، عبد الله .

وصهيب وكان فارسياً ابتاعه من الروم جماعة من العرب وباعوه إلى عبد الله ابن جدعان ، مر يوماً على دار النبي فرأى عمار بن ياسر ، فقال عمار : أين تريد ياصهيب ؟ قال : أريد أن أدخل على محمد أسمع شيئاً من كلامه ، وما يدعو اليه قال عمار : وأنا أريد ذلك ، فدخلا على النبي فأمرهما بالجلوس وعرض عليهما الاسلام ، وقرأ آيات من القرآن ، فتشهدا ، ثم مكثا عنده يومهما ، وخرجا

مستخفيين ، ودخل عمار على أبيه وأمه وأخبرهما خبره ، وقرأ عليهما ماحفظه من القرآن ، فأعجبهما وأسلما .

وشكا جماعة من قريش إلى حصين والد عمران ، وكان معظما فيهم . فقالوا : كلم لنا هذا الرجل فإنه يذكر آلهتنا ويسبها . وجاءوا معه فجلسوا قريباً من باب النبي ، ودخل حصين وولده عمران فى الجلوس . ولما رآه النبي قال : أوسعوا للشيخ . وقال حصين : ما هـذا الذى بلغنا عنك أنك تشتم آلهتنا ؟ فقال : ياحصين كم تعبد من إله ؟ قال : سبعة فى الأرض وواحداً فى السماء ، قال : فاذا أصابك الضر من تدعو ؟ قال : الذى فى السماء ، قال : فاذا هلك المال ؟ قال الذى فى السماء . قال : يستجيب لك وحده وتشرك معه غيره !؟ ياحصين أسلم تسلم . فتشهد ، فقام إليه ولده عمران فقبل رأسه ويديه ، فامتلأت عينا النبي بالدموع وقال : بكيت من صنع عمران ، دخل حصين وهو كافر فلم يقم له عمران ولم يلتفت ناحيته . فلما أسلم وفى بحقه ، فدخلنى من ذلك الرقة . وأراد حصين الخروج ، فقال النبي لأصحابه : شيعوه إلى منزله . ورأته قريش فقالوا : صبأ الشيخ ، وتفرقوا .

الاقبال على الاسلام

من يومئذ أقبل الناس على الإسلام ، من رجال ونساء . وقريش فى أثناء هذا لم يبعدوا عنه ولم يردوا عليه . وإنما كان إذا مر النبي على مجالسهم قال العامة منهم : هذا ابن عبد المطلب يكلم من السماء ، فيغضى ولا يلتفت إليهم ، ويدعو الناس خفية . وإذا أراد الصلاة (صلاة الركعتين بالغداة والعشى) ذهب إلى بعض شعاب مكة فيستخفى بصلاته .

وفيما كان سعد بن أبى وقاص ونفر من المسلمين يصلون فى أحد شعاب

مكة ، ظهر عليهم نفر من قريش وناكروهم وعابوا عليهم مايصنعون . فتسابوا وتلاعنوا ، فضرب سعد رجلا بلحى بعير فشجه (وهو أول دم فى الاسلام) واشتد الأمر ، فجمع النبى إليه أصحابه ، ودخل بهم دار الأرقم (الآن دار الخيزران) فأقاموا بها يقيمون الصلاة ، ويعبدون الله .

إبلاغ الدعوة إلى الأقربين

جاء الوحى الى النبى بإنذار عشيرته (وأنذر عشيرتك الأقربين) فاشتد ذلك على النبى وضاق به ذرعاً ، فمكث نحو شهر لا يخرج من مقره ، فظنت عماته أنه شاك (مريض) فدخلن عليه عائدات ، فقال : ما اشتكيت شيئاً ، لكن أمرت بإنذار عشيرتى ، وأريد أن أجمع بنى عبد المطلب لأدعوهم إلى الله ، فقلن له : أدعهم ولا تجعل عبد العزى (أبا لهب) فيهم (سمى أبا لهب لإحمرار خديه) فانه غير مجيبك إلى ما تدعو ، وخرجن عنه ، وأصبح فبعث الى بنى عبد المطلب فحضروا وفيهم أبو لهب الذى بادر بالكلام فقال : يامحمد هؤلاء عمومتك فتكلم بما تريد واترك الصبأة ، واعلم أنه ليس للعرب بقولك طاقة ، وأن أحق من أخذك وحبسك أسرتك وبنو أبيك إن قمت على أمرك ، وهو أيسر من أن تثب عليك بطون قريش وتمدها العرب ، فانى لم أر أحداً قط قد جاء بنى أبيه وقومه بأشر مما جئتنا به . فانصرف النبى عن الرد عليه بقوله : يا بنى كعب بن لؤى ، وبنى مرة بن كعب ، ويابنى هاشم وبنى عبدشمس وبنى عبد مناف وبنى زهرة وبنى عبد المطلب ، أنقذوا أنفسكم من النار ، إنى لا أغنى عنكم من الله شيئاً إلا أن تقولوا لا إله إلا الله . فتزاحموا بكلام لم يفهم ، وأنصتوا ، فقال أبو لهب : تباً لك (غل) ألهذا جمعتنا ؟ ثم انصرفوا (ونزل القرآن بالرد على قوله تباً) .

وفى يوم بعد هذا أمر النبى فصنع طعام فى بيت خديجة وأوتى به إلى دار أبى طالب وأرسل وراء عشيرته فحضروا ، وبعد أن تناولوا الطعام خطبهم بقوله : إن الرائد لا يكذب أهله ، والله لو كذبت الناس جميعاً ما كذبتكم ، ولو غررت الناس جميعاً ما غررتكم ، والله الذى لا إله إلا هو إنى لرسول الله إليكم خاصة وإلى الناس كافة ، والله لتموتن كما تنامون ، ولتبعثن كما تستيقظون ، ولتحاسبن بما تعملون ، ولتجزون بالإحسان إحساناً وبالسوء سوءاً ، وإنها الجنة أبداً أو النار أبداً ، يا بنى عبد المطلب ما أعلم شاباً جاء قومه بأفضل مما جئتكم به ، إنى قد جئتكم بأمر الدنيا والآخرة ، فتكلم الناس كلاماً ليناً غير أبى لهب فقد قال : يابنى عبدالمطلب هذه والله السوأة ، خذوا على يده وامنعوه عن هذا الأمر بحبس أو غيره ، قبل أن يأخذ على يده غيركم ، فان التمسوه ذللتم وإن منعتموه قتلتم . فقالت أخته صفية بنت عبدالمطلب (أم الزبير بن العوام) : أى أخى أيحسن بك خذلان ابن أخيك ، فوالله مازال العلماء يخبرون أنه يخرج من ضئضئ (أصل) عبدالمطلب نبى ، وهو هو !؟ قال أبو لهب : هذا والله الباطل والأمانى وكلام النساء فى الحجال ، فاذا قامت بطون قريش وقامت العرب معها فما قوتنابهم ، والله مانحن عندهم إلا أكلة رأس ! فقال أبوطالب : والله لنمنعنه (ندافع عنه) مابقينا ، ثم تفرقوا .

وما مضى غير قليل من الأيام وأمر النبى فصنع طعام فى دار خديجة ، ودعا أهله فحضروا ورأوا الطعام وهو شاة مع مد من البر وصاع من اللبن (الصواع أو الصاع والمد مكاييل ، والصاع أربعة أمداد . والمد رطل وثلث عند الحجازيين ورطلان عند العراقيين) أى أقل من كفايتهم ، فتغامزوا وتسابقوا إلى تعاطيه ، فأكلوا حتى شبعوا وشربوا حتى نهلوا ، وبقى من الطعام قدر كفايتهم .

فدهشوا وجعل بعضهم ينظر إلى بعض تعجباً . وأراد النبي أن يتكلم فسبق أبو لهب وقام وهو يخاطب الحضور بقوله : لقد سحركم صاحبكم ، فقام الجميع وانصرفوا .

وفى يوم بعده مر النبي فوجد جماعة من قريش على الصفا . فقال يخاطبهم : أرأيتم إن أخبرتكم أن خيلا تخرج من سفح هذا الجبل تريد أن تغير عليكم ، أكنتم تكذبونى ؟ فأجاب أكثرهم : والله ماجربنا عليك كذباً . فقال : يا معشر قريش أنقذوا أنفسكم من النار فانى لا أغنى عنكم من الله شيئاً . إنى لكم نذير مبين بين يدى عذاب شديد . إن مثلى معكم مثل رجل رأى العدو فانطلق يريد أهله خشية أن يسبق إليهم . فجعل يهتف ياصباحاه ياصباحاه ! أتيتكم أتيتكم ! أنا النذير العريان (المتعرى عن النصير) إن الله قد بعثنى إلى الخلق كافة وإليكم خاصة فقال (وأنذر عشيرتك الأقربين) وأنا أدعوكم إلى كلمتين خفيفتين على اللسان ثقيلتين فى الميزان ، شهادة أن لاإله إلا الله وأنى رسول الله ، فمن يجيبنى إلى هذا الامر ويؤازرنى على القيام به ؟ . فلم يجبه أحد وتفرقوا .

ودأب يدعو الناس إلى دينه وكفار قريش لاينكرون قوله ، ولكن كان يمر على مجالسهم فيشيرون إليه باستهزاء . إن غلام بنى عبد المطلب يتكلم فى السماء ، فعلوا ذلك مراراً إلى أن عاب آلهتهم وسفه عقولهم ، فتناكروا وأجمعوا على خلافه وعداوته . وجاؤا أبا طالب ، وقالوا : إن ابن أخيك قد سب آلهتنا وعاب ديننا وسفه أحلامنا ينسبنا إلى قلة العقل ويضلل آباءنا ، فإما كففته عنا أو خليت بيننا وبينه ، فإنك على مانحن عليه من خلافه فقال لهم أبو طالب قولا رفيقاً ، وردهم بالجميل وانصرفوا .

ومضى النبي يظهر دينه ، ويدعو اليه أهله لايرده عن ذلك شيء ، فكثر

الشر وتزايد وانتشر بينه وبينهم ، حتى تباغض الرجال وتضاغنوا ، وأكثرت قريش ذكر النبي بينهم ، وحرض بعضهم بعضاً على مقاطعته وعدائه وحربه . فمشوا إلى أبي طالب فقالوا : ياأبا طالب إن لك سناً وشرفاً ومنزلة ، وإنا قد طلبنا منك أن تنهى ابن أخيك فلم تنهه عنا ، وإنا والله لانصبر على شتم آبائنا وعيب آلهتنا حتى تكفه عنا أو ننازله وإياك فى ذلك حتى يهلك أحد الفريقين . فعظم على أبي طالب فراق قومه وعداوتهم ، ولم تطب نفسه بأن يخذل النبي فجاءه وقال له : يا ابن أخى إن قومك جاؤنى فقالوا كذا وكذا ، فأبق علىَّ وعلى نفسك ولاتحملنى من الأمر مالاأطيق . فظن النبي أن عمه خاذله وأنه قد ضعف عن نصرته . ونظر فى عمه طويلا وأطرق برأسه ثم قام عنه . فلما ولى ناداه أبو طالب ، وقال : أقبل يا ابن أخى . فعاد إليه ، فقال : اذهب فقل ما أحببت والله لاأسلمك . وبلغ هذا قريشاً ، فجاءوا أبا طالب بعمارة بن الوليد بن المغيرة وقالوا : هذا عمارة أنهر (أشد) وأجمل فتى فى قريش ، فخذه لك ولداً وتبناه وأسلم إلينا ابن أخيك هذا الذى خالف دينه ودين آبائك وفرق جماعة قومك وسفه عقولهم فنقتله . فقال أبو طالب : بئسما تسومونى ! أتعطونى ابنكم ، أغذوه لكم وأعطيكم ولدى تقتلونه ! أفرأيتم ناقة تحن إلى غير فصيلها ! والله لا يكون هذا أبداً . فقال المطعم بن عدى : والله يا أباطالب ، لقد أنصفك قومك وجهدوا على التخلص مما تكره ، فما أراك تقبل منهم . قال أبو طالب : والله ما أنصفونى ، ولكن قد أجمعت خذلانى ومظاهرة القوم . فاصنع مابدا لك .

من ذلك اشتد الأمر وعلت المنافسة ، ورأى أبو طالب إصرار قريش على العداء . فدعا بنى هاشم وبنى عبد المطلب إلى ما يعتزمه من منع النبي والقيام دونه فأجابوه غير أبى لهب . وبقى يجاهر النبي بالظلم ومن آمن معه بالأذى ، وسمع أبو جهل بما كان من أبى طالب فقال : لله على إن رأيت محمداً ساجداً

أن أطأ عنقه . وبلغ النبي قوله فخرج حتى دخل المسجد وقام يصلى ، وأقبل أبو جهل فحاذاه ثم نكص راجعاً . فسئل عن رجوعه فقال : والله لما كأنه محمد الذى أعرفه !

وذاع فى الناس نزول سورة ، تبت يدا أبى لهب جواباً على شتمه للنبي بما مضى . وامرأته أم جميل بنت حرب (أخت أبى سفيان) وكانت تضع الحسك والشوك فى طريق النبي من بيته . فجاءت النبي ومعه أبو بكر وبيدها فهر (حجر يملأ الكف وبه طول تدق به الهاون) وقالت : ياأبا بكر ماشأن صاحبك ينشد الشعر فىّ ؟ قال : لا ورب هذا (يشير إلى البيت) ما هجاك صاحبي وما هو بشاعر . فقالت : أنت صادق ، وانصرفت ولم تر النبي .

وقال أبو لهب لولده عتبة : رأسك من رأسى حرام إن لم تفارق رقية ابنة محمد (وكان قد تزوجها قبل الدعوة ولم يدخل بها وتزوج معه أخوه عتيبة أم كلثوم أختها ولم يدخل بها) فقال عتبة وكان ينوى الذهاب إلى الشام : لآتين محمداً ولأوذينه فى ربه ، وللحال أتاه فقال : يامحمد أنا كافر برب النجم إذا هوى ، وبالذى دنى فتدلى ، وابنتك مردودة عليك ، ثم بصق فى وجه النبي وذهب ، فقال النبي : سلط الله عليك كلباً من كلابه . وكان أبو طالب حاضراً فوجم لذلك ، وقال : ما أغناك يا ابن أخى عن هذا . وأخبر أبو لهب بذلك ، فخاف على ابنه ، ورافقه فى سفره إلى الشام وهناك قتل عتبة سبع .

ودخل النبي المسجد وقام يصلى وجماعة من قريش جلوس ينظرون إليه ، فقال أبو جهل : ألا رجل يقوم فيجيء بفرث (خثاء) جزور فيضعه بين كتفيه إذا سجد . فقام عتبة بن أبى معيط فأحضر فرثاً طرياً وألقاه بخفة على ظهر النبي وهو ساجد . فضحكوا وجعل بعضهم يميل على بعض من شدة

الضحك ، وذهب إنسان وأخبر فاطمة بنت أسد (أم على بن أبى طالب) فجاءت والنبى فى سجوده وألقت القذر عنه وأقبلت تشتم الحاضرين . ورفع هو من سجوده وهو يقول : اللهم عليك بأبى الحكم (يعنى أبا جهل) وعتبة ابن ربيعة والوليد بن عتبة وعقبة بن أبى معيط وعمارة بن الوليد وأمية ابن خلف ، اللهم عليك بقريش (كررها ثلاثاً) وسمعوا صوته فذهب عنهم الضحك وهابوا دعوته .

ودخل النبى البيت للطواف ويده فى يد أبى بكر وخلفهما عثمان بن عفان وفى الحجر ثلاثة عشر نفر جلوس ؛ عقبة بن أبى معيط وأبو جهل وأمية بن خلف . فطاف النبى وصاحباه حتى إذا حاذوا النفر أسمعوه بعض مايكره ، فدنا عثمان من النبى فجعله بينه وبين أبى بكر فلما حاذاهم ، قال أبو جهل : والله لا نصالحك مابل بحر صوفة ، وأنت تنهى أن نعبد مايعبد آباؤنا . فقال النبى : أنا على ذلك ، ثم مضى عنهم . وصنعوا فى الشوط الثالث مثل ذلك . حتى إذا كان الشوط الرابع قاموا إليه . ووثب أبو جهل يريد أن يأخذ بمجامع ثوبه فدفعه عثمان فى صدره فوقع على الأرض ، ودفع أبو بكر أمية ودفع النبى عقبة بن أبى معيط ؛ فانفرجوا عنه وهو واقف فقال : أما والله لاتنتهون حتى يحل عليكم عقابه . فوقفوا سكوتاً ، فنظر إليهم النبى وقال . بئس القوم أنتم لنبيكم . ثم انصرف وتبعه صاحباه إلى باب بيته ، وأقبل على أبى بكر وعثمان وقال : أبشروا فان الله مظهر دينه ومتم كلمته وناصر نبيه . وسترون من هؤلاء من يذبح عاجلا .

وعلمت قريش بما جرى فاجتمع ساداتهم وكبراؤهم وسادتهم فى الحجر وذكروا النبى ، فقالوا : ماصبرنا لأمر قط صبرنا لهذا الرجل ، ولقد شتم آباءنا

وعاب ديننا ، وفرق جماعتنا ، وسب آلهتنا . وهم فى هذا طلع عليهم النبى وأقبل يمشى حتى استلم الركن ثم مر طائفاً بالبيت . فلما صار حيالهم لمزوه ببعض القول ، ومر ثانية فلمزوه ، ثم مر فى الثالثة فوقف عليهم وقال : أتسمعون يامعشر قريش أما والذى نفسى بيده لقد جئتكم بالذبح ، فذعروا وصمتوا قليلا . وأقبلوا يقولون : ياأبا القاسم انصرف فوالله ما كنت جهولا ، فانصرف عنهم .

ولما كان فى الغد اجتمعوا فقال بعضهم لبعض : ذكرتم ما بلغ محمداً منكم وما بلغكم منه . حتى إذا نادا كم بماتكرهون تركتموه ، وفى هذه اللحظة توائبوا اليه كرجل واحد وأحاطوا به يجذبونه فى شعر رأسه ولحيته حتى سقط بعض شعره ، وأخذ رجل منهم بمجمع ردائه ، وأتى الصريخ إلى أبى بكر فخرج ودخل المسجد فوجدهم كذلك فقال : ياويلكم أتقتلون رجلا أن يقول ربى الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم . فكفوا عن النبى وأقبلوا على أبى بكر يضربونه . فقال النبى دعهم ياأبا بكر فوالذى نفسى بيده إنى بعثت اليهم بالذبح فتفرقوا عنه .

جرى كل ذلك والنبى ومن آمن معه لايزالون فى دار الأرقم ، وألح أبو بكر فى الخروج إلى المسجد ، فقال النبى : يا أبا بكر إنا قليل . فلم يزل به حتى خرج وأصحابه إلى المسجد وقام أبو بكر خطيباً (وهو أول خطيب فى الإسلام) ودعا إلى الله ، فقام المشركون على أبى بكر وعلى المسلمين ، وضربوهم ضرباً مبرحاً ، ووطىء أبو بكر بالأرجل وضرب ضرباً شديداً . وصار عتبة بن ربيعة يضرب أبا بكر بنعلين مخصوفتين (مطبقتين) ويحرفهما إلى وجهه ، فصار لا يعرف أنفه فى وجهه . وجاؤا بنو تيم عشيرة أبى بكر يتعادون ، فأجلت المشركين عنه وحملوه إلى بيته وهم لايشكون فى موته . ثم

رجعوا فدخلوا المسجد وعادوا إلى أبي بكر ، وجعلوا مع أبيه يكلمونه فلا يجيب . إلى أن كان آخر النهار تكلم فقال : ما فعل النبي ؟ فعذلوه فصار يكرر ذلك . فقالت أمه : والله مالى علم بصاحبك . فقال : اذهبي الى أم جميل بنت الخطاب (أخت عمر بن الخطاب) فاسأليها عنه ، فجاءت أم جميل وقالت : « إن أبا بكر يسأل عن محمد بن عبد الله ، فقالت أم جميل : لا أعرف محمداً ولا أبا بكر ، أو تريدين أن أخرج معك ؟ قالت : نعم ، فخرجت معها فأتت أبا بكر فوجدته صريعاً ، فصاحت قائلة : إن قوماً نالوا منك هذا لأهل فسق . وإني لأرجو أن ينتقم الله منهم ، فقال أبو بكر : وما فعل النبي ؟ قالت أم جميل : هذه أمك تسمع . قال : لاعين عليك منها ، قالت : إنه سالم فى دار الأرقم . قال والله لا أذوق طعاماً ولا شراباً آتيه فاستمهلوه حتى إذا هدأت الرجل وسكن الناس خرجوا به متكئاً على كتف أمه ، ودخل على النبي فرق له وأكب عليه يقبله والمسلمون كذلك ، فقال أبو بكر : بأبي أنت وأمي مابي من بأس إلا مانال الناس من وجهي . وهذه أمي برة بولدها فعسى الله ينقذها بك من النار ، فدعاها النبي إلى الإسلام فأسلمت ودعا لها . وجاسوا يتحدثون ، فقال الصحابة : إن قريشاً لم تسمع شيئاً من القرآن فمن يسمعهم إياه جهراً ؟ قال عبدالله بن مسعود : أنا ، قالوا : نخشى عليك منهم . إنما نريد رجلا له عشيرة يمنعونه من القوم ، قال : دعوني فان الله يمنعني ، وذهب عبد الله فى الصباح وقريش فى أنديتهم فرفع صوته قائلا (بسم الله الرحمن الرحيم . الرحمن علم القرآن) واستمر يتلو . فقالوا : مابال ابن أم عبد ؟ قال بعضهم . جاء يتلو بعض ما جاء به محمد . فقاموا إليه يضربون وجهه وهو مستمر حتى قرأ أكثر السورة . وانصرف إلى أصحابه وقد أدمت قريش وجهه . فقالوا : هذا الذى خشينا عليك ! قال : والله مارأيت أهون على مثل

اليوم ، ولو شئتم أتيتهم بمثلها غداً ، قالوا : لا فقد أسمعتهم ما يكرهون .

وقد كان أبو لهب والحكم بن العاصى وأمية بن خلف وعقبة بن أبى مُعَيط جيران النبى فى منزله . فجعلوا يطرحون عليه الأذى فى داره . فيأخذ ذاك ويخرج فيقف على باب داره ويقول بتلطف : يا بنى عبد مناف أىّ جوار هذا ! ثم يلقيه . وإذا قرأ القرآن تقف له جماعة عن يمينه وجماعة عن يساره فيصفقون ويصفرون ويخلطون عليه بالأشعار .

إسلام حمزة

ومر بعد هذا عند الصفا فاعترضه أبو جهل، وسبه وشتمه وعفر التراب على رأسه وهناك مولاة صفية بنت عبد المطلب . وانصرف النبى ولم يكلمه ، وذهب أبو جهل إلى نادى قريش (موضع تحدثهم فى المسجد) فجلس معهم ، وفيما كان حمزة بن عبد المطلب عائداً من صيده ، كانت امرأتان تسيران من خلفه . فقالت إحداهما للأخرى تسارها ، لو علم حمزة ماصنع أبو جهل بابن أخيه أسرع فى مشيته . وسمعها حمزة فأقصر فى مشيته ليسمع قولها ، فلحقته مولاة صفية وأخبرته الخبر . فاحتمل حمزة الغضب ودخل المسجد فرأى أباجهل جالسا فى القوم . فأقبل حتى وقف على رأسه وضربه بقوسه فشجه شجة منكرة وقال : أتشتم محمداً وأنا على دينه أقول مايقول ؟ فرد على ذلك إن استطعت . فقال أبو جهل : إنه سفه عقولنا وسب آلهتنا وخالف آباءنا . قال حمزة : لأنكم تعبدون الحجارة من دون الله . أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا رسول الله . فقامت رجال من بنى مخزوم عشيرة أبى جهل لينصروه . وقالوا : نراك قد صبأت ، قال حمزة : وما يمنعنى وقد استبان لى أنه رسول الله والذى يقوله حق . والله لا أقزع فامنعونى إن كنتم صادقين .

قال أبو جهل : دعو أبا عمارة فانى والله قد أسمعت ابن أخيه شيئاً . وتركهم حمزة . وفى الصباح أتى النبى فأسلم . وقال : أشهد أنك لصادق . فأظهر يا ابن أخى دينك ، فما أحب أن لى ما أظلته السماء وأنا على دينى الأول . فسر النبى بإسلام حمزة لأنه كان أعز فتى فى قريش وأشدهم شكيمة . ومن يومئذ عز النبى ، وعرف له قريش هذا فكفوا عن بعض إيذائه .

أذى قريش للمسلمين

وأقبلوا على بعض أصحابه بالأذية . وخاصة منهم المستضعفين الذين لا ناصر لهم . وأخذ كل بطن من قريش يعذب من اتبع النبى ويفتنه عن دينه بالحبس والضرب والجوع والعطش وغير ذلك . حتى كان الواحد منهم لا يستطيع الجلوس من شدة الضرب الذى به . وكان أبو جهل يحرض الناس على ذلك . وإذا سمع بإسلام رجل له شرف ومنعة جاءه ووبخه وزجره وهدده بضياع كرامته وشرفه . وإذا كان تاجراً أخافه بهلك المال وكساد التجارة . وإن كان ضعيفاً أغرى به . حتى فتن بعض من آمن عن دينه وأرجعه إلى الشرك كالحرث بن ربيعة بن الأسود وأبى القيس بن الوليد بن المغيرة وعلى بن أمية بن خلف والعاصى بن منبه بن الحجاج .

معارضة قريش للنبى

بعد ذلك اجتمع عتبة بن ربيعة وشيبة وأبو سفيان بن حرب ورجل من بنى عبد الدار وأبو البحترى والأسود بن المطلب وزمعة بن الأسود والوليد بن المغيرة وأبو جهل وعبد الله بن أبى أمية المخزومى وأمية بن خلف والعاصى بن وائل ونبيه ومنبه ابنا الحجاج فقالوا : انظروا أعلمكم بالشعر

والكهانة فليأت هذا الرجل الذى فرق جماعتنا وشتت أمرنا وعاب ديننا ، فليكلمه ولينظر ماذا يرد عليه . قالوا : ما نعلم غير عتبة بن ربيعة . فقام عتبة حتى جلس إلى النبى فى المسجد ، فقال : يا ابن أخى إنك منا حيث قد علمت من السلطة فى العشيرة والمكان فى النسب . وإنك أتيت قومك بأمر عظيم فرقت به جماعتهم وسفهت أحلامهم وعبت آلهتهم ودينهم وكفرت من مضى من آبائهم ، ففضحتنا فى العرب حتى طار فيهم أن فى قريش ساحراً وأن فى قريش كاهناً ، ما نريد إلا أن يقوم بعضنا لبعض بالسيف فنتفانى ، فاسمع أعرض عليك أموراً تنظر فيها لعلك تقبل بعضها . قال النبى : قل يا أبا الوليد أسمع . قال يا ابن أخى إن كنت تريد بما جئته من هذا الأمر مالاً جمعنا لك من أموالنا فتكون أكثرنا مالا ، وإن كنت تريد شرفا سوّدناك علينا فلا نقطع أمراً دونك ، وإن كنت تريد ملكا ملكناك علينا ، وإن كان هذا الذى يأتيك رئياً من الجن يعتريك لا تستطيع ردّه عن نفسك طلبنا لك الطب ، وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك . قال النبى : أفرغت يا أبا الوليد ؟ قال : نعم . قال : فاسمع ، قال : أفعل . قال النبى « بسم الله الرحمن الرحيم حم تنزيل من الرحمن الرحيم ، الى قوله : صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود » فأمسك عتبة على فمه وناشده الرحمة أن يكف . فقال النبى : قد سمعت يا أبا الوليد ، وأنت وذاك ، فقام عتبة ورجع إليهم . قالوا : ما وراءك ؟ قال : والذى نصبها بنيئة (يريد الكعبة) لقد عرضت على محمد كذا وكذا فسمعت منه كلاماً ليس بشعر ولا كهانة ولا سحر . وقد أنذركم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود ، وقد علمتم أنه لا يكذب فخفت العذاب عليكم فأمسكت بفيه ، فأطيعونى واعتزلوه . فان يصبه غيركم كفيتموه ، وإن ظهر فملكه ملككم ، وعزه عزكم قالوا : لقد سحرك بلسانه يا أبا الوليد ، ومالنا إلا أن نذهب إليه بجمعنا ،

وقاموا فأتوا أبا طالب وسألوه أن يحضر محمداً ويأمره بإزالة شكواهم ، وأن يجيبهم الى أمر فيه الألفة والصلاح . فأرسل أبو طالب إلى النبي ، وقال له : يا ابن أخي هذا الملأ من قومك فأزل شكواهم ، وقالوا : يا محمد ما نعلم رجلا من العرب أدخل على قومه ما أدخلت على قومك ، وإنه ما فى قبيح إلا جلبته فيما بيننا وبينك . فان كنت إنما جئت بهذا تطلب الشرف فينا فنحن نسودك علينا ، وإن كنت تريد ملكا ملكناك علينا ، وإذا كان هذا الأمر الذى يأتيك رئياً غلب عليك بذلنا أموالنا فى طلب الطب لك أو نعذر . قال النبي : مابى ماتقولون ولكن الله بعثنى إليكم رسولا وأنزل على كتابا وأمرنى أن أكون لكم بشيراً ونذيراً ، فبلغتكم رسالات ربى ونصحت لكم ، فان تقبلوا منى ماجئتكم به فهو حظكم فى الدنيا والآخرة وإن تردوا على أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بينى وبينكم . قالوا : وإن كنت غير قابل ماعرضنا عليك فقد علمت أنه ليس أحد أضيق داراً ولا أقل مالا ولا أشد عيشاً منا ، فسل ربك يسير لنا هذه الجبال التى ضيقت علينا (يريدون الجبال المحيطة بمكة) وليبسط لنا بلادنا (يوسع أرضها) وليجر فيها أنهاراً كالشام والعراق . وسله يرسل معك ملكا يصدقك ويراجعنا عنك ، ويجعل لنا جنات وقصوراً وكنوزاً من ذهب وفضة تغنى بها أنت عن المشى فى الأسواق والتماس المعاش ، أو فاعبد آلهتنا ونحن نتكفل بكل ماتحتاج إليه ، فإن لم تفعل فاعبد آلهتنا سنة ونعبد إلهك سنة وإلا ولم تفعل فأسقط علينا كسفاً من السماء كما زعمت أن ربك إن شاء فعل ، فانا لن نؤمن لك إلا أن يفعل ذلك ، فرأى النبي أن مقترحاتهم ليست سوى عناد وتحد لدعوته . فقال لهم : ما أنا بالذى يسأل ربه هذا ، ولا بعثت لكم به وإنما جئتكم بما بعثنى به فقاموا وانصرفوا (ونزل بعد ذلك القرآن بالرد على مطالبهم)

قضية الأعمى

وفى أمر ما هو جلس إليه من وجوه قريش ؛ أبو جهل بن هشام وعتبة ابن ربيعة وشيبة بن ربيعة وأمية بن خلف والوليد بن المغيرة وعبدالله بن أبى أمية المخزومى (أسلم بعد وهو ابن عاتكة بنت عبدالمطلب) فجعل يتلطف بهم ويؤانسهم لشدة رغبته فى إسلامهم . وشكوا إليه ما فى القرآن من ذم عبادة الأوثان والوعيد الشديد ، وقالوا : إن ماجئت به حسن إلا هذا ، فائت بقرآن غير هذا . فحسب النبى أنه سيقنعهم فيهتدوا ، ودخل عليه عبد الله بن أم مكتوم (ابن خال خديجة) وكان رجلا أعمى وممن سبق إسلامه، وجعل يقول: يارسول الله علمنى مما علمك الله . فأعرض عنه ولم يحبه رجاء أن يصمت فلا يقطع حديثه للقوم ولا يرده فيحتقروا الدين باحتقاره .وألحّ عبد الله بقوله. فعبس النبى وأعرض عنه مقبلا على من كان يكلمه من القرشيين طمعاً فى هدايتهم فحدث ما كان قد تخوف منه إذ قال أبو جهل : لوكان ما أتى به محمد خيراً ماسبقنا هذا إليه وعلى أثره قال عبدالله بن أمية : يامحمد قد عرض عليك قومك ماعرضوا فلم تقبل ، وسألوك أموراً ليعرفوا منزلتك من الله كما تقول ويصدقوك ويتبعوك فلم تفعل . ثم سألوك أن تعجل عليهم بعض ماتخوفهم من العذاب فلم تفعل ، والله لن نؤمن لك أبداً حتى تتخذ إلى السماء سلماً ثم ترقى فيه ونحن ننظر إليك ثم تعود ومعك صك من أربعة من الملائكة يشهدون أنك كما تقول . ولو فعلت ذلك وأيم الله ماظننت أنى أصدقك . فالتفت النبى عنهم آسفاً حزيناً على مافاته من هدايتهم ، وانفضوا عنه غاضبين . وفى هذه الساعة جاءه الوحى ذاكراً إعراضه ، عن عبدالله بن أم مكتوم، فنظر اليه قائلا مرحبا بمن عاتبنى فيه ربى . وصار كلما جاءه بعد ذلك يبسط له النبى رداءه ويعيد عليه قوله المتقدم .

وعبارة العتاب فى قوله تعالى : (عبس وتولى أن جاءه الأعمى ، وما يدريك لعله يزكى ، أو يذكر فتنفعه الذكرى) إنما قال بها النبى مراعاة لما يحتمله المعنى الإجمالى . ولتقريب ذلك للأذهان . والله أجل وأعدل من أن يعاقب إنسانا على أنه لم يعلم الغيب الذى اختص الله به نفسه . وأنه إن كان يطلب من النبى التبصر ، فان رغبته فى هداية من جاءه من قريش ، وعدم اتساع الوقت للتبصر جعله يبادر من عنديا ته بما رأى فيه مصلحة الدين .

ويرى المتدبر أن معنى هذه الآيات . والله أعلم ، حكاية واقع وإخبار باستئثار الله بالغيب ومثله : زيد فعل كذا ولا يدرى ماتقرر فى علم سيده بشأن مافعل .

ونمى إلى قريش خبر هذا المجلس فقال أبو جهل : تزاحمنا نحن وبنو عبد المطلب على الشرف حتى إذا صرنا كفرسى رهان . قالوا منا نبى يوحى اليه . والله لانرضى به ولانتبعه أبداً إلاأن يأتينا وحى كما يأتيه !! وقال الوليد ابن المغيرة : أينزل القرآن على محمد وأترك أنا وأنا كبير قريش وسيدها !! ويترك عروة بن مسعود سيد ثقيف ونحن عظماء القريتين (مكة والطائف ورد القرآن على هذا)

امتحان قريش للنبى

ثم بعثوا النضر بن الحرث وعقبة بن أبى معيط إلى أحبار اليهود بالمدينة يغريانهم بالنبى . وفهمهما اليهود فسألوهما عن أمّية النبى وعمن اتبعه . فأجاباهم بأنه أمى لايقرأ ولايكتب واتبعه السفلة منا . فضحك أحبار اليهود وقالوا : هو بعينه . ولكن ليذهب إليه كباركما فيسألوه (١) عن فتية ذهبوا فى الأعصر الهالكة (٢) وعن نبأ رجل طواف (٣) وعن الروح ، فان

أجاب على الأولين بتفصيل وأوجز عن الأخير فقديس هو ، وإلا فلا . فرجع النضر وعقبة فأخبرا قريشاً فذهب نضر إلى النبي وسألوه . فأجابهم بتلقين الوحى عن الأول بأهل الكهف وعن الثانى بأنه ذو القرنين ، وعن الروح بأنه من أمر الله (أى كائن بأمره)

أبو جهل والنبي

واشترى أبو جهل من رجل يقال له الإراشى (بكسر الهمزة نسبة إلى إراشة بطن من خثعم) جملا فمطله بثمنها . فذهب حتى وقف على نادى قريش وقال : يامعشر قريش من يعينى على أبى الحكم بن هشام ، فإنى غريب وابن سبيل وقد غلبنى على حقى . فقالوا (وأشاروا إلى النبى استهزاء) اذهب إلى هذا الرجل فهو يعينك عليه . فجاءه وكان لايعرفه وقال ، ياعبد الله إن أبا الحكم بن هشام غلبنى على حقى قبله وأنا غريب وابن سبيل . وسألت هؤلاء القوم عن رجل يأخذ لى بحقى منه فأشاروا إليك . فخذلى حقى يرحمك الله . فقام النبي مع الإراشى إلى دار أبى جهل ودق الباب فخرج أبو جهل ورآه فامتقع لونه . فقال النبي: إعط هذا الرجل حقه . فذهب تواً وعاد ودفع إلى الرجل ماله . ومر الإراشى على مجلس قريش فسألوه فقال : جزاه الله خيرا (يريد النبى) فقد والله أخذلى بحقى . ووافى أبو جهل وسألوه فقال : ويحكم ، والله مادق بابى وسمعت صوته حتى ملئت رعباً ، ولعل ذلك من كراهيتى له.

أذى قريش للنبي

وكانت قريش مع هذا التقصد والعناد لايمتنعون عن السخرية والاستهزاء بالنبي . فان الحكم بن أبى العاصى (أبو مروان بن أبى الحكم) كان يمشى وراءه

فيتعوج بأنفه وفمه ، ورآه النبي مرة يفعل هذا فقال : اللهم اجعل به وزغا. (ارتعاشا) ومن يومئذ صار الحكم يرتعش

والعاصى بن وائل السهمى (أبو عمرو بن العاصى) كان يقول :غر محمد نفسه وأصحابه فوعدهم أن يحيوا بعدالموت ، والله مايهلكنا إلا الدهرومرور الأيام والأحداث . وأتاه خباب بن الأرث (الصحابى) وكان قيناً بمكة (أى حداداً) وقد باع للعاصى سيوفاً مطله بثمنها . فقال : ياخباب أليس يزعم محمد هذا الذى أنت على دينه أن الجنة ماابتغى أهلها من ذهب وفضة إلا وجدوه؟ قال خباب : بلى . قال: فأنظرنى حتى أرجع إلى تلك الدار فأقضيك حقك هناك أو أعطيك إياه حالا إن كفرت بمحمد ! قال خباب : لا والله وسيميتك إله محمد ويبعثك . قال : فذرنى حتى أموت وأبعث .

وكان الأسود بن عبديغوث (ابن خال النبى) إذا رآه قال : أما كلمت اليوم من السماء يامحمد ! واذا رأى نفراً من المسلمين قال لمن حوله : جاءكم ملوك الأرض الذين سيرثون كسرى وقيصر .

والأسود بن المطلب كان إذا رأى النبى صلى الله عليه وسلم تغامز هو وأصحابه وصفروا .

واجتمع نفر بالوليد بن المغيرة (والد خالد بن الوليد) فى بعض المواسم . فقال لهم الوليد : قد حضركم هذا الموسم وإن وفود العرب ستقدم عليكم، وقد سمعوا بأمر صاحبكم فأجمعوا فيه رأيا ولا تختلفوا فيكذب بعضكم بعضاً .قالوا : فأقم لنا رأيا . قال : والله ماهو بكاهن ، ولقد رأيت الكهان ، فما هو بزمزمة الكاهن ولا بسجعه ! قالوا : فنقول مجنون ؟ قال : والله ماهو بمجنون . لقد رأينا المجنون فما هو بخنقه ولا وسوسته . قالوا : شاعر . قال : وماهو بشاعر لقد عرفنا الشعر كله رجزه وهزجه وقريضه ومقبوضه ومبسوطه . قالوا : ساحر

قال وماهو بساحر فلقد رأينا السحرة وسحرهم فماهو بنفثه ولاعقده ! قالوا: فما تقول أنت ؟ قال : والله إن لقوله لحلاوة وإن عليه لطلاوة ، وإن أصله لعذق وإن فرعه لجناة ، وماأنتم بقائلين من هذا شيئاً إلا كان باطلا، وإن أقرب القول فيه أن تقولوا جاء بقول هو سحر يفرق بين المرء وأبيه وأمه وأخيه وزوجه وعشيرته ! فجعلوا يجلسون فى سبل الناس حين قدموا الموسم لايمر بهم أحد إلا حذروه إياه وذكروا لهم أمره . فصدرت العرب من ذلك الموسم تتحدث بأمر النبي وانتشر ذكره فى بلاد العرب بل فى جميع الآفاق ، وكان أبولهب كما تقدم جار النبي ، وكثيراً مايطرح القذر على بابه ، فرآه أخوه حمزة مرة يفعل ذاك ، فأخذ حمزة القذر ووضعه على رأسه ، فجعل أبو لهب ينفضه ويقول : صابىء أحمق .

وكان النبي يطوف على الناس ويقول لهم : إن الله يأمركم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً ، وأبو لهب خلفه يتبعه فى مشيته ويقول : أيها الناس هذا يأمركم أن تتركوا دين آبائكم وهو عار عليكم

ومنبه ونبيه ابنا الحجاج كان كل منهما إذا لقى النبي قال له : أماوجد الله من يبعثه غيرك ، إن هاهنا من هو أسن منك وأيسر ، فان كنت صادقا فائتنا بملك يشهد لك ويمشى معك ! وإذا ذكر النبي أمام أحدهما قال: معلم مجنون !

النبي بوادى ركانة

وفى يوم خرج النبي من بيته صباحاً فأدى به المسير إلى واد منقطع خارج مكة ، فلقيه ركانة بن عبد يزيد بن هاشم (أسلم فى عام الفتح) وكان شديد البأس قوياً جسيما معروفا بالقوة فى الصراع بحيث لم يصرعه أحد قط، ولامسَّ جنبه الأرض مغلوبا ، وكانت العرب تحرم المرور فى هذا الوادى خوفاً من ركانة

وقد اختصه لنفسه يرعى فيه غنمه ، فاعترضه رُكانة وقال له : أنت تشتم آلهتنا وتدعو إلهك العزيز ، ولولا رحم بيني وبينك قتلتك ، ولكن ادع إلهك أن ينجيك مني اليوم فإني أدعوك لأن تصارعني وتدعو إلهك وأدعو اللات والعزى ، فان غلبتني فلك من غنمي هذه عشرة تختارها . فأجابه النبي وصارعه فغلبه . فقال ركانة : إنك لم تصرعني وإنما غلبني إلهك وخذلني اللات والعزى وما وضع جنبي على الأرض أحد قبلك ، ولكن عد فان صرعتني فلك عشرة ثانية . فعاد وصرعه ، فقال كما قال أولا ثم عاد وصرعه فقال: دونكها ثلاثين من غنمي فقال النبي : لا أريد ذلك ولكني أدعوك إلى الإسلام . قال ركانة إني أكره أن يتحدث نساء مكة وصبيانها بأني أجبتك خوفا منك ! ولكن الغنم لك . قال النبي لاحاجة لي بها ، وانطلق فلقيه أبو بكر مذعوراً فقال: أتخرج إلى وادي ركانة فتبسم النبي وأخبره الخبر فعجب أبو بكر !

تعميم الدعوة

وأمر النبي بإبلاغ الدعوة جهرة « فاصدع بما تؤمر » وكان لايزال ومن اتبعه مستخفياً بدار الأرقم . فراح يبلغ الدعوة ظاهراً ، وبالغ في التكرار بها فلم يرد عليه أحد بغير الاستهزاء ، حتى دخل المسجد يوماً فوجد قريشاً يسجدون للأصنام فنهرهم وقال : أبطلتم دين أبيكم إبراهيم ! قالوا إنما نسجد لها لتقربنا إلى الله ، فلم يرض وعاب فعلهم . فزاد بالجميع الحقد عليه وأجمعوا على مخالفته وعداوته ، وعطف عليه عمه أبو طالب ومنعه (دافع عنه) وقام دونه . فاشتد الأمر بين القوم وأظهر بعضهم لبعض العداوة . وتشاورت قريش على من أسلم يعذبونهم ويفتنونهم عن دينهم . ومشى أبو جهل بالإغراء والتحريض . وتقسمت قريش تعذيب من أسلم . فأخذوا عمار بن ياسر وأخاه وأباه وأمه

فصاروا يكوونهم بالنار ، حتى ماتت أمه فى التنكيل ، وقتلوا أباه . وكذلك فعلوا بخباب بن الأرث القينى (الحداد) بأن أوقدوا النار وكووا بها ظهره فما أطفأها إلا ودك (دهن) ظهره . وكانوا يكتفون بلال بن حمامة ويلقونه تحت الهجير فى القيلولة بدون طعام ولا شراب وهو يقول : أحد ، أحد . ومر عليه ورقة ابن نوفل فقال لأمية بن خلف متولى تعذيبه . والله لئن قتلتموه لأتخذن قبره حناناً (منسكا ومتعبداً) فكانوا يعطونه للأولاد ، فيربطون فى رقبته حبلا ويطوفون به فى شعاب مكة وامرأته خلفه تبكى . وعذب عامر بن فهيرة . وأبو فكيهة كانت توضع على بطن كل منهما صخرة على الرمضاء . وصنعو مثل هذا مع كثير من النساء المؤمنات .

الهجرة الأولى

ورأى النبى المشركين يؤذون أتباعه ولا يستطيع أن يكفهم ، فجمع إليه أكثرهم وقال لهم : لو خرجتم إلى أرض الحبشة ، فان بها ملكاً لا يظلم عنده أحد ، وهى أرض صدق ، حتى يجعل الله لكم فرجاً مما أنتم فيه . فخرجوا إليها خوف الفتنة وفراراً إلى الله ، وهاجر بعضهم بأهله كعثمان بن عفان وزوجته رقية بنت النبى ، وأبو سلمة بن عبد الأسد وزوجته أم سلمة ، وحذيفة بن عتبة بن ربيعة وزوجته سهلة بنت سهل بن عمرو ، وعامر بن أبى ربيعة وزوجته ليلى العدوية ، وهاجرت أم أيمن (بركة الحبشية مربية النبى) مع سيدتها رقية ، وهاجر وحده عبد الرحمن بن عوف ، والزبير بن العوام ، ومصعب بن عمير وعثمان بن مظعون ، وسهيل بن بيضاء ، وأبو سبرة بن أبى رهم ، وحاطب ابن عمر ، وعبد الله بن مسعود . وجميعهم خرجوا مشاة متسللين سراً ، ثم استأجروا سفينة فى البحر بنصف دينار . وبلغ الخبر قريشاً ، فخرج نفر فى

آثارهم وبلغوا ساحل البحر ولم يدركوا أحداً منهم . ولما وصل المهاجرون الحبشة أكرمهم النجاشى ولم ينكر عليهم أهالى البلاد مقدمهم ، فسكنوا فى هدوء آمنين يعبدون الله لا يؤذون ولا يسمعون مكروهاً .

واشتد الضيق من قريش على من بقى من المسلمين ، فخرج أبو بكر وحده مهاجراً حتى بلغ بَرْك الغِماد (موضع على خمس ليال من مكة مما يلى اليمن) ولقيه ابن الدُّغُنَّة سيد القارَّة (قبيلة من بنى الهون بن خزيمة) فقال ابن الدغنة لأبى بكر : أين تريد يا أبا بكر ؟ قال أخرجنى قومى وأريد أن أسيح فى الأرض وأعبد ربى ، قال ابن الدغنة : مثلك لا يُخرج ولا يَخرج ، وأنا لك جار ، فارجع واعبد ربك ببلدك ، فرجع وارتحل معه ابن الدغنة فطاف فى أشراف قريش يقول : إن أبا بكر لا يَخرج ولا يُخرج مثله من بلده ، أتخرجون رجلا يكسب المعدوم ويصل الرحم ويحمل الكل ويقرى الضيف ويعين على النوائب ! فلم ينكروا شيئاً من ذلك ، وأجاروا جواره ، وقالوا : مره فليعبد ربه فى داره وليصل وليقرأ ماشاء فيها ولا يؤذينا بذلك ولا يستعلن به فإنا نخشى أن يفتن نساءنا وأبناءنا ، فعاد ابن الدغنة ، واشترط على أبى بكر ما قالوا ، فلبث أبو بكر يعبد ربه سراً فى بيته ، ثم ابتنى بفناء داره مسجداً يصلى ويقرأ القرآن فيه . فيزدحم عليه نساء المشركين وأبناؤهم حتى يسقط بعضهم على بعض ، ويعجبون من قراءته وبكائه ، فشق هذا على أشراف قريش ، وأرسلوا إلى ابن الدغنة ، فقالوا : إن أبا بكر قد بنى له مسجداً وأعلن بالصلاة والقراءة ، فإن أحب الاقتصار على أن يعبد ربه فى داره فعل ، وإن أبى إلا أن يعلن فله أن يرد عليك ذمتك ، فإنا قد كرهنا أن نخفرك (نحتقرك) فأتى ابن الدغنة أبا بكر ، وقال : قد علمت الذى عاقدت لك عليه ، فإما أن

تقتصر على ذلك ، وإما أن ترد علىّ ذمتى وجوارى . قال أبو بكر : إنى أرد عليك جوارك ، وأرضى بجوار الله (حمايته) .

وعلم النبى بتزايد الأذى على المستضعفين من أصحابه ، فجعل يجمع كل اثنين أو ثلاثة منهم بعائلاتهم إلى بيت أحدهم يعيشون به ويرسل لهم من طعامه وشرابه ليتعاونوا على دفع من يهاجمهم بالإيذاء ، وليحرس بعضهم بعضاً حال الغيبة .

وحضر إلى الحبشة ركب من كنانة ، فأخبر أن قريشاً تصالحت مع النبى فعاد بعض المهاجرين حتى إذا صاروا على مقربة من مكة بلغهم أن قريشا على ماهم من عداوة المسلمين . فتشاور الحاضرون منهم واتفقوا على أن يدخلوا مكة ويحدثوا عهداً بأهلهم ويعودوا . فدخل ابن مسعود بلا جوار ولبث قليلا ورجع إلى الحبشة . ودخل عثمان بن مظعون فى جوار الوليد بن المغيرة المخزومى . ولما رأى المشركين يؤذون المستضعفين فى المسلمين الذين ليس لهم من يجيرهم وهو آمن لايدفع عنهم ولا يؤذيه أحد ، ذهب إلى الوليد فرد عليه جواره ، وقال : حسبى جوار الله . وبينماهو فى مجلس من مجالس قريش وفد عليهم لبيد بن ربيعة (اسلم بعد هذا) وأخذ مجلسه فيهم وأنشد :

ألا كل شىء ماخلا الله باطل

فقال عثمان بن مظعون : صدقت . فقال لبيد :

وكل نعـــيم لا محالة زائل

قال عثمان ، كذبت نعيم الجنة لايزول ، فقال لبيد : متى كان جليسكم يؤذى يامعشر قريش ؟ فقام رجل منهم ولطم عثمان بن مظعون فاخضرت عينه . فلامه الوليد على رد جواره وقال : قد كنت فى ذمة منيعة ؟ قال عثمان : إن عينى الأخرى إلى ماأصاب أختها لفقيرة . قال الوليد : عد إلى جوارك . قال : لا ، بل أرضى بجوار الله .

وعاد من الحبشة أبو سلمة بن عبد الأسد بن هلال بن عبدالله المخزومى زوج أم سلمة (أمه برة بنت عبدالمطلب) فدخل فى جوار خاله أبى طالب . فمشى إلى أبى طالب رجال من مخزوم وقالوا: يا أبا طالب منعت منا ابن أخيك ، فمالك وصاحبنا تمنعه منا (يريدون أخذه وتعذيبه) قال ابو طالب : إنه استجار بى وهو ابن اختى وأنا إن لم امنع ابن أختى لا أمنع ابن أخى . فقام أبو لهب فى وجه المخزوميين وقال لهم يامعشر قريش لا تزالون تعارضون هذا الشيخ فى جواره من قومه ؟ لتنتهن أو لأقومن معه فى كل مقام يقوم فيه حتى يبلغ ما أراد . فتفرقوا خوفا من أن يصير أبو لهب إلى نصرة النبى . وطمع أبو طالب فى أن يكون أبو لهب معه فى نصرة النبى ، وأنشأ ابياتا يحرضه فيها على نصرته فلم يتأثر بها .

الهجرة الثانية

وتبين للمسلمين الذين رجعوا من الحبشة شدة معارضة قريش فرجعوا إلى الحبشة (وتسمى الهجرة الثانية) وهاجر عامة المسلمين فاجتمع منهم فى الحبشة ثلاثة وثمانون رجلا وثمانى عشرة امرأة. فيهم جعفر بن أبى طالب وزوجته أسماء بنت عميس ، والمقداد بن الأسود ، وعبد الله بن مسعود ، وعبيد الله بن جحش ، وزوجته أم حبيبة بنت أبى سفيان . وهناك تنصر زوجها ومات على النصرانية ، وبقيت أم حبيبة على إسلامها . وأسلم أبو موسى الأشعرى فى قومه باليمن قبل أن يرى النبى ، وبلغه أنه خرج مهاجراً إلى الحبشة ، فخرج أبو موسى فى خمسين رجلا من قومه على سفينة مهاجرين إليه. وهناك وجدوا جعفر بن أبى طالب وأصحابه ، فأمرهم جعفر بالإقامة معهم فوافقوه وأقاموا معه بالحبشة .

المسلمون في الحبشة

وبلغ قريشاً أن أتباع محمد يقيمون عند النجاشى على أحسن مقام وبخير دار عند خير جار . فبعثت قريش خلفهم عمرو بن العاص وعمارة بن الوليد ابن المغيرة المخزومى (الذى أحبت قريش دفعه إلى أبي طالب بدل محمد) وبعثوا معهما فرساً وجبة من الديباج هدية للنجاشى . وهدايا إلى جماعة من عظماء الحبشة ليردوا من جاء إليهم من المسلمين . ودخل عمرو وعمارة على النجاشى فسجدوا له وقدموا هديتهما فقبلها . فقالا : إن نفرا من بنى عمنا نزلوا أرضك راغبين عنا وعن آلهتنا . ولم يدخلوا فى دينكم بل جاؤا بدين مبتدع لا نعرفه نحن ولا أنتم . وقد بعثنا إلى الملك فيهم أشراف قريش ليردوهم إليهم قال وأين هم ؟ قالوا : بأرضك، فأرسل من طلبهم . وقال عظماء الحبشة : تدفع إليهم أصحابهم فهم أعرف بحالهم . قال النجاشى : لا والله حتى أعلم على أى شىء هم . قال عمرو بن العاصى : إنهم لايخرون (يسجدون) لك ، ولايحيونك كما يحييك الناس إذا دخلوا عليك رغبة عن سنتك ودينك .

وأقبل المسلمون على اتفاق أن يكون جعفر بن أبي طالب خطيبهم وقد كان النجاشى دعا أساقفته، وأذن بدخول جعفر ومن معه، فدخلوا وسلموا قال عمرو ابن العاص: ألا يرى الملك أنهم مستكبرون ولم يحيوك بتحيتك «يعنى السجود» قال النجاشى لجعفر : مامنعكم أن تحيونى بتحيتى فتسجدوا لى ؟ قال جعفر : إنا لانسجد إلا لله تعالى . قال : ولم ذلك ؟ قال أرسل الله فينا رسولا أمرنا أن لانسجد إلا لله تعالى وقال: إن تحية أهل الجنة السلام فحيياك بالذى يحيى به بعضنا بعضاً وأمرنا بالصلاة ركعتين بالغداة وركعتين بالعشى (لأن صلاة الخمس كانت لم تفرض ، وأمرنا بالزكاة يريد مطلق الصدقة لأن زكاة المال كانت لم تفرض قال عمرو للنجاشى : إنهم يخالفونك فى ابن مريم العذراء ولا يقولون إنه ابن

الله . قال النجاشى لجعفر : وما تقولون فى ابن مريم وأمه؟ قال جعفر : نقول ماقال الله « روح الله وكلمته ألقاها إلى مريم » قال النجاشى : مازادوا على إجماع القساوسه ، اللهم إنه لصدق، قال جعفر: فليسألهم الملك . أعبيد نحن أبقنا (شردنا) يريدون ردنا إلى أربابنا ؟ أم أرقنا دما بغير حق فيقتص منا ؟ أم أخذنا أموال الناس بغير حق فعلينا القضاء ؟ قال عمرو : لا والله بل هم أحرار ولا دم ولا دين عليهم . قال النجاشى لجعفر : انطلقوا فوالله لا أسلم فيكم أبداً . إذهبوا فأنتم آمنون ومن نظر إليكم بأذى فقد عصانى ، ومن سبكم غرم ، من سبكم غرم ، من سبكم غرم (قالها ثلاثاً) وأمر بهدية عمر ورفيقه فردت ليهما . وقال : ماأحب أن يكون لى جبل من ذهب وأنا أوذى رجلا من هؤلاء . ولا حاجة لى بهديتكم . فوالله ماأخذ الله منى الرشوة حين رد على ملكى فآخذ الرشوة ؛ وما أطاع الناس لى فأطيعهم فيه ، فانصرف الجميع . ومكث عمرو وعمارة فى الحبشة أياماً أصيب فيها عمارة بن الوليد بجنون أفضى به إلى ترك زوجته والهيام على وجهه مع الوحش فى الجبال إلى أن مات بعد زمن ، ورجع عمرو بن العاص .

عمر بن الخطاب

وكان عمر بن الخطاب قوياً شديد البأس شجاعا فتاكا ، قوى الشكيمة حراً جريئاً على المخاطر ، يفعل مايقول ، لايخاف أحداً ولا يخشى جماعة . وكانت قريش تهابه وتتجنب خصومته وعداءه ، وكان دائب الشغل بالتجارة إلى الشام وبلاد الفرس لايقيم بمكة إلا أياما معدودة ورجع من سفر فى هذه الأيام (أى أيام اشتداد الخصومة بين قريش والنبى) فلقيه رجل من قريش فقال له: أين تذهب ياعمر ، إنك تزعم أنك هكذا (وأشار إلى حجر) فى دينك ، فانظر فان محمد بن عبد الله أفسد علينا ديننا وسب آلهتنا وسفه أحلامنا ، قال عمر :

إنما فرغت لهذا الصابىء الذى فرق أمر قريش وسأقتله ، وذهب فلقيه سعد بن أبى وقاص . فقال : إلى أين ياعمر؟ قال أريد أن أقتل محمداً : قال سعد أنت أصغر وأحقر من ذلك . تريد أن تقتل محمداً وندعك أو تدعك بنو عبد مناف على الأرض ؟ قال عمر : ماأراك إلا قد صبأت فأبدأ بك فأقتلك قال سعد : أشهد أن لاإله إلا الله وأن محمداً رسول الله فاستل عمر سيفه وسل سعد سيفه وتقاربا حتى كادا يختلطا . وطلع عليهما نعيم : فقال : ماذا ياعمر؟ قال : إن سعداً قد صبأ ولا بد من قتله. قال نعيم : وما لك لاتفعل هذا بختنك (صهرك) وبأختك ؟ قال صبآ قال نعيم؟ نعم ، فزاد غضب عمر وأغمد سيفه . وقفل مسرعاً إلى بيت أخته أم جميل زوجة سعيد بن زيد . وقرع الباب . وكان سعيد وزوجته وخباب بن الأرث الذى ضم اليهما يقرأون صحفاً من القرآن . فلما سمعوا صوت عمر تبادروا إلى الاختفاء ونسوا الصحف فى موضع جلوسهم. وفتحت أم جميل الباب . فقال عمر : قد بلغنى ياعدوة نفسها أنك صبأت . فظهر له سعيد زوجها ، وقال : ومالك أنت وهذا ؟ فقام عمر وأخذ برقبة سعيد وضرب به الأرض وجلس على صدره . فجاءت زوجته تكف عمر عنه فلطمها لطمة شج بها وجهها وسال دمها . فبكت وقالت : أتضربنى ياعدو الله على أن أوحد الله . لقد أسلمنا على رغم أنفك فما كنت فاعلا فافعل ! وكأنما قد هدأت نفس عمر لما رأى دم أخته . فقام عن سعيد وجلس . ونظر فاذا بصحف ملقاة فى ناحية . فمد يده لينظر فيها (وكان قارئاً) فقالت أخته لاتمسها فانك لست من أهلها قال عمر : عهداً على أنى أردها وتناول صحيفة قرأ فيها « بسم الله الرحمن الرحيم » فنظر عمر شاخصاً يتفكر . وقرأ « سبح لله مافى السموات والأرض. حتى بلغ . آمنوا بالله ورسوله وأنفقوا

مما جعلكم مستخلفين فيه ، فأرسل الصحيفة برفق وهدوء وتناول الثانية فقرأ بها « طه ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى . إلا تذكرة لمن يخشى . تنزيلا ممن خلق الأرض والسموات العلى . الرحمن على العرش استوى . له ما فى السموات وما فى الأرض وما بينهما وما تحت الثرى . وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السر وأخفى . الله لا إله الا هو له الأسماء الحسنى » فرفع عمر جبهته وفتح عينيه وقال من هذا فرّت قريش وعاد فقرأ « فلا يصدنك عنها من لا يؤمن بها واتبع هواه فتردى » فأخذ يفكر طويلا كأنما هو يصغى إلى حديث . ووضع الصحيفة بجانبه وتناول الثالثة بفتور فقرأ « إذا الشمس كورت . وانتهى إلى : علمت نفس ما أحضرت » فوضع يده عند أنفه . وجلس هنيهة يتأمل ثم قال بهدوء دلونى على محمد قالت أخته إنه فى أسفل الصفا فسار اليه فى دار الأرقم حيث كان النبى مختفياً بأصحابه فقرع الباب فقيل من هذا ؟ قال ابن الخطاب وقد علموا من قبل شدته فما اجترأ أحد على فتح الباب . فقال النبى : افتحوا له . فان يرد الله به خيراً يهده . قال حمزة وإن يرد غير ذلك فقتله علينا هين — وما فتح الباب وتخطى عمر خطوة حتى لزم عمر يمينه والزبير شماله ودنا من النبى ، فقال : أرسلاه ، اللهم اهد عمر ثم قال له اجلس ياعمر . فجلس متلطفاً فقال النبى : ما جاء بك يا ابن الخطاب ؟ قال : جئت لأكون فى جملة أتباعك وأشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله . ففرح النبى والحاضرون واستبشروا .

فلما اطمأن فى جلوسه قال ألسنا يارسول الله على الحق إن متنا وإن حيينا قال النبى : بلى والذى نفسى بيده إنكم على الحق إن متم وإن حييتم . قال عمر : ففيم الخفاء يارسول الله قال ياعمر : إنا قليل وقد رأيت ما لقينا . قال عمر والذى بعثك بالحق نبياً لا يبقى مجلس جلست فيه بالكفر إلا جلست فيه بالإيمان . وذهب فجاء خاله أبا جهل ودق عليه الباب . فقال : من ؟ قال : عمر

ابن الخطاب . . فخرج مبتدراً وقال : مرحبا وأهلا يا ابن أختى . ماجاء بك ؟ قال جئت لأبشرك ببشارة . قال أبو جهل : وما هى ؟ . قال عمر : ذلك أنى آمنت بالله وبرسوله محمد بن عبدالله وصدقت ماجاء به فضرب الباب فى وجه عمر وقال : قبحك الله وقبح مابشرتنى به . فتركه عمر وسار إلى جميل بن حبيب وكان معروفا بسرعة نقل الحديث . فقال له : أعلمت ياجميل أنى قد أسلمت ودخلت فى دين محمد ؟ فماراجعه حتى قام يجر رداءه واتبعه عمر . فقام على باب المسجد وصرخ بأعلى صوته : يامعشر قريش ألا إن ابن الخطاب قد صبأ وجعل عمر فى خلفه يقول رافعاً صوته كذب ولكنى أسلمت وشهدت أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله . فخرج القوم كالنحل . فما زالوا يضربون عمر ويضربهم . وأقبل أبو جهل على الصياح فقال . ماهذا ؟ قالوا : ابن الخطاب فقام على الحجر وأشار بكمه ، ألا إنى أجرت ابن أختى فانكشف الناس عنه ووثب عتبة بن ربيعة على عمر فالقاه عمر على الأرض وبرك عليه ووضع إصبعيه فى عينيه فجعل عتبة يصيح . ولا يدنو منه أحد إلا أخذ عمر بشراسيفه (أطراف أضلاعه) . فخلاه الناس وانصرفوا ورجع عمر إلى داره . فأتاه فى الصباح العاصى بن وائل السهمى (أبو عمرو بن العاصى) وعليه حلة حبرة وقميص مكفوف بحرير . فقال : مابالك ياعمر ؟ قال : زعم قومك أنهم سيقتلوننى لأنى أسلمت ، قال . قد أمنتك ولا سبيل إليك وخرج العاصى فاذا الناس يسيل بهم الوادى . فقال أين تريدون ؟ قالوا : ابن الخطاب الذى قد صبأ . قال : لا سبيل إليه . فرجع الناس وانصرفوا . وما لبث العاصى أن رجع اليه عمر ورد إليه جواره .

دخول أبى طالب الشعب

وفى الغدوة جاء عمر إلى النبى يراجعه فى الخروج من دار الأرقم إلى المسجد وألحف حتى وافقه على ذلك . وخرجوا يسيرون صفوفاً . وعمر فى مقدمتهم وحمزة فى آخرهم . ودخلوا المسجد ، ونظرت قريش إليهم فأصابتهم كآبة لم يصبهم مثلها . وتداعوا إلى ناديهم فقالوا : قد أفسد محمد أبناءنا وأولى بنا أن نجمع منادية مضاعفة فنعطيها رجلا من غير قريش ليقتله ونريح أنفسنا وأهلنا . وبلغ أبا طالب ذلك فجمع بنى هاشم وبنى المطلب وأمرهم فدخلوا شعبهم « إلا أبا لهب » ودخل معهم النبى بعد أن أمر كثيراً ممن آمن بالمهاجرة إلى الحبشة « وهى الهجرة الثالثة » فهاجروا وإنما منع النبى من أولئك من كان كافراً حمية على عادة العرب فى المناصرة . وأمر أبو طالب النبى أن يأتى فراشه كل ليلة من أول الليل ليراه من أراد به شراً أو غائلة ؛ فإذا نام الناس أمر أحد بنيه أو أخواته أو بنى عمه أن يضطجع على فراش النبى ، ويأمره هو أن يأتى بعض فرشهم فيرقد عليها .

تحالف قريش ضد بنى هاشم

وعلمت قريش حرص الهاشميين فائتمروا بالمحصب أن يكتبوا كتاباً يتعاقدون فيه على بنى هاشم وبنى عبد المطلب ؛ أن لا ينكحوا اليهم (لا يتزوجوا منهم) ولا ينكحوهم (لا يتزوجوهم) ولا يبيعوا ولا يبتاعوا منهم شيئاً ولا يقبلوا منهم صلحاً أبداً ولا تأخذهم بهم رأفة حتى يسلموا محمداً للقتل . فكتبوا من ذلك صحفاً ابتدأوا جميعها بكلمة : باسمك اللهم . اتفقت قريش على كذا وكذا وأخذ كل جماعة صحيفة وعلقوا صحيفة فى الكعبة . وكان لا يصل أبا طالب

والنبي ومن معهما ميرة ولا مارة ولا شيء . فإذا جاء الموسم يخرجون لأجل الحج فلا يمنعون . ويأتي أحدهم ليشترى طعاماً فلا يسمح له . حتى أكلوا الخبط ورق الشجر إلى ثلاث سنين . وعلمت قريش أن فى السر من يقوم لهم ببعض معونة فترصدوا ذلك ، فعثروا فى ليلة على ثلاث أجمال من الطعام قد أرسلها إلى بنى هاشم والمطلب هشام بن عمرو العامرى « اسلم بعد ذلك » فمشت إليه قريش فى الصباح وكلموه فقال : إنى غير عائد لشيء خالفتكم فيه فانصرفوا عنه وعاد الثانية فأدخل حملين فغالظته (أغلظت له القول) قريش وهمت بقتله . فقال لهم أبو سفيان بن حرب : دعوه . رجل وصل أهله ورحمه . أما إنى أحلف بالله لو فعلنا مثل مافعل لكان أحسن بنا . فغضب القوم وتفرقوا على ضغن . وعلموا بأن حكيم بن حزام «ابن أخى خديجة » يصل الشعبيين . وقد لقيه أبوجهل ومع حكيم غلام يحمل قمحا يريد به عمته . فقال له أبو جهل : تذهب بالطعام لبنى هاشم . والله لا تمتنع حتى أفضحك بمكة . وحضرهما أبو البخترى فقال لأبى جهل : مالك وماله ؟ قال أبو جهل . إنه يحمل الطعام لبنى هاشم فقال أبو البخترى طعام كان لعمته عنده أفتمنعه أن يأتيها به ؟ خل سبيل الرجل . فأبى أبو جهل ونال أحدهما من الآخر فضرب أبو البخترى أبا جهل فشجه ووطئه وطءاً شديداً فانكف عن ذلك .

تمزيق صحائف المحالفة

إلى يوم جاء النبي أبا طالب وأخبره بأن الإرضة أكلت كتابة صحائف اتفاق قريش ولم تبق منها إلا على اسم الله فقال أبو طالب : أربك أخبرك بهذا؟ قال : نعم . قال أبو طالب . والثواقب ما كذبتنى قط . ثم قام فى عصابة من بنى هاشم والمطلب حتى أتوا المسجد . فأنكر قريش ذلك وظنوا أنهم خرجوا

من شدة البلاء ليسلموا النبي إليهم . فقال أبو طالب : يامعشر قريش جرت بيننا وبينكم أمور لم تذكر فى صحيفتكم . فأتوا بها عسى أن يكون بيننا وبينكم صلح . فأتوا بها وهم لا يشكون أن أبا طالب يدفع إليهم النبي . فوضعوها بينهم . وقبل أن تفتح قالوا لأبى طالب : قد آن لكم أن ترجعوا عما أحدثتم علينا وعلى أنفسكم . فقال : إنما أتيتكم فى أمر هو نصف بيننا وبينكم . إن ابن أخى أخبرنى ، ولم يكذبنى أن الله قد بعث على صحيفتكم دابة أكلت غدركم وتظاهركم علينا بالظلم . ولم تترك سوى اسم الله تعالى . فإن كان كما يقول فأفيقوا وأقلعوا عما أنتم عليه — أما عنه فوالله لا نسلمه حتى نموت عن آخرنا ، وإن كان ما يقول باطلا دفعناه إليكم فقتلتم أو استحييتم (أبقيتم) فقالوا رضينا . وفتحوا الصحائف فوجدوا سطورها قد أكلت ولم يبق إلا كلمة « باسمك اللهم » فقال أبو طالب . فعلام نحبس ونحصر وقد بان الأمر وتبين لكم أنكم أولى بالظلم والقطيعة . وقام ومن معه ودخلوا بين أستار الكعبة . وقالوا بحيث تسمع قريش : اللهم انصرنا على من ظلمنا وقطع أرحامنا واستحل منا ما يحرم عليه . ثم انصرفوا .

كان هذا باعثاً بهشام بن عمرو « اسلم بعد ذلك » لأن يمشى بعد أيام إلى زهير بن أبى أمية « أسلم بعد ذلك » فقال : يازهير أرضيت أن تأكل الطعام وتلبس الثياب وأخوالك حيث علمت ؟ قال زهير : ويحك ياهشام ، وماذا أصنع ؟ فانما أنا رجل واحد ، والله لو كان معى رجل آخر لقمت فى نقض الإتفاق. فقال هشام : أنا معك . فقال : أبغنا ثالثا . فقاما إلى مطعم بن عدى فقالا : أرضيت أن يهلك بطنان من بنى مناف وأنت شاهد ؟ فقال مطعم : إنما أنا واحد . قالا : فانا معك . قال : أبغنا رابعا ، فذهبوا إلى أبى البخترى

فقال . أبغنا خامسا . فذهبوا إلى زمعة بن الأسود فوافقهم على ذلك . وباتوا بأعلى مكة وتعاقدوا وتعاهدوا على نقض تلك الصحيفة وإخراج بنى هشام من من الشعب . وقال زهير : أنا أبدؤكم وأكون أول متكلم . وأصبحوا فغدوا إلى أنديتهم وعلى زهير حلة فطاف بالبيت . ثم أقبل على الناس فقال : ياأهل مكة : أنأكل الطعام ونلبس الثياب وبنو هاشم والمطلب هلكى لا يبتاعون ولا يبتاع منهم . والله لا أقعد حتى تمزق هذه الصحيفة القاطعة الظالمة ، فقال أبو جهل : كذبت والله لاتشق . فقال زمعة بن الأسود : أنت والله أكذب ما رضينا كتابتها حين كتبت . وقال أبو البختري . صدق زمعة . فقال مطعم ابن عدى صدقتما وكذب من قال غير ذلك نبرأ الى الله منها ومما كتب فيها . وقال هشام: ونبرأ مما يفصلنا عن أهلنا . قال أبو جهل : هذا أمر قضى بليل واضطرب الأمر بينهم وكثر القيل والقال . فقام مطعم إلى الصحيفة فشقها وقام الخمسة ومعهم جماعة فلبسوا السلاح . ثم خرجوا إلى بنى هاشم والمطلب فأمرهم بالخروج إلى مساكنهم ففعلوا .

وفاة أبى طالب وخديجة

فى هذه الأيام مرض أبو طالب واشتد به المرض ، فجمع إليه بنى هاشم والنبي معهم ، وقال لهم : يا معشر بنى هاشم أطيعوا محمداً وصدقوه تفلحوا وترشدوا ، فقال النبي : ياعم تأمرهم بالنصيحة لأنفسهم وتدعها لنفسك ؟قال: وما تريد يا ابن أخي؟ قال : أريد أن تقول لا إله إلا الله أشهدلك بها عندالله. قال : والله يا ابن أخى لولا مخافة السبة عليك وعلى بنى أبيك من بعدى، وأن تظن قريش أنى إنما قلتها جزعاً (خوفا) من الموت لأقررت بها عينيك لما أرى من شدة وجدك بها ، لكنى أموت على ملة الأشياخ عبد المطلب وهاشم

وعبد مناف (وفيه نزل قوله : إنك لا تهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء) ثم توفى .

وتوفيت بعده بخمسة أيام السيدة خديجة بنت خويلد زوج النبى ، فحزن على الاثنين حزناً شديداً ، ونزل فى حفرة خديجة ودفنها بيده ، وقد عاشت معه خمساً وعشرين سنة ، وقالت له خولة بنت حكيم امرأة عثمان بن مظعون: أراك قد حزنت لفقد خديجة : قال : أجل أم العيال وربة البيت .

زواج النبى

ورجعت إليه خولة بنت حكيم بعد أيام فقالت : ألا تتزوج ؟ قال : من؟ قالت : إن شئت بكراً وإن شئت ثيباً ، قال فمن البكر ؟ قالت : أحق خلق الله بك عائشة بنت أبى بكر ، قال: ومن الثيب ؟ قالت سودة بنت زمعة بن الأسود (وكانت متزوجة بالسكران ، أسلم وهاجر بها إلى الحبشة ، ثم رجع ومات بمكة) وقد آمنت بك واتبعتك . قال : فاذكريهما علىّ . فذهبت خولة ودخلت على سودة فقالت : ماذا أدخل الله عليك من الخير والبركة ؟ قالت سودة : وما ذاك ؟ قالت أرسلنى رسول الله أخطبك عليه . قالت : وددت ذلك ، ادخلى على أبى فاذكرى ذلك له ، وكان زمعة (أحد الخمسة فى مسألة الصحيفة ولم يسلم) شيخاً كبيراً باقياً على دين قومه . فدخلت خولة عليه وحيته بتحية الجاهلية ، فقال زمعة : من؟ قالت : خولة بنت حكيم . قال : فما شأنك ؟ قالت: أرسلنى محمد بن عبد الله أخطب عليه سودة . قال : كفء كريم ، وما تقول صاحبتك ؟ قالت : تحب ذلك . قال : ادعيها إلى . فدعتها . قال زمعة : أى بنية ، إن هذه تزعم أن محمد بن عبد الله أرسل يخطبك ، وهو كفء كريم ،

أفتحبين أن أزوجك منه ؟ قالت : نعم . فقال لخولة : ادعيه . فجاء النبي فزوجه سودة ودخل بها.

وذهبت خولة إلى أم رومان أم عائشة فقالت لها: ماذا أدخل الله عليكم من الخير والبركة ؟ قد أرسلني رسول الله لأخطب عليه عائشة . قالت أم رومان : انتظري أبا بكر . وجاء فذكرت خولة له الأمر . قال أبو بكر : مكانك . وقام فقابل مطعم بن عدى ، وكان قد خطب عائشة لولده جبير . وقال له : ما تقول في أمر هذه الجارية التي ذكرتها على ابنك جبير ، فنظر مطعم إلى امرأته وقال : ما تقولين ؟ قالت لأبي بكر : لعلنا إن نكحنا هذا الفتى إليكم يا أبا بكر تصبئه وتدخله في دينك الذي أنت عليه ؟ فقال أبو بكر لمطعم : وأنت ماذا تقول ؟ قال : إنك لتسمع ما تقول (أي قولي مثل قولها) فقام أبو بكر ورجع إلى خولة فقال : ادعي لي النبي . فدعته وعقد له على عائشة وهي بنت ست سنين وأجل الدخول بها .

حمية أبي اللهب

بعد أن مات أبو طالب اشتدت قريش على النبي ونالت من إيذائه ما لم تكن تطمع فيه في حياة أبي طالب . حتى لقد دخل يوماً بيته والتراب على رأسه فقام إليه بعض بناته وجعلت تزيل التراب وتبكي ، وهو يقول لها : لا تبكي يا بنية فان الله مانع أباك .

وخرج يوماً إلى المسجد فتهجمت قريش عليه . فقال : ما نالت مني قريش شيئاً أكرهه حتى مات أبو طالب ، ما أسرع يا عم ما وجدت فقدك . فقام إليه أبو لهب وقال : يا محمد امض لما أمرت وما كنت صانعاً إذ كان أبو طالب حياً ، إنهم واللات والعزى لا يصلون إليك حتى أموت ، فلم يجبه النبي بشيء

وانصرف . وأذاع أبو لهب نصرته له . فلم يزل أبو جهل وعتبة بن أبي معيط وغيرهما من أشراف قريش يحتالون على أبي لهب حتى صدوه عن ذلك ، وعاد إلى ما كان عليه ، وأجمع معهم على معاداته ومقاطعته .

النبي في الطائف

بلغ النبي إجماع قريش وتآمرهم على إخراجه من مكة والفتك به ، فخرج إلى الطائف ومعه مولاه زيد بن حارثة ، وهو مكروب مشوش الخاطر مما لقي من قرابته وعشيرته . وخاصة من أبي لهب وزوجته يلتمس من ثقيف الإسلام رجاء أن يسلموا ويناصروه على الاسلام والقيام معه على من خالفه من قومه . وأخبرت قريش بخروجه الى الطائف فأجمعوا على منعه من دخول مكة وصده عنها إذا أرادها .

وعمد النبي إلى أشراف الطائف وساداتها وكانوا إخوة ثلاثة عبد ياليل واسمه كنانة ، ومسعود واسمه عبد كلال (بضم الكاف) وحبيب أولاد عمر ابن عوف الثقفي . فجلس اليهم وكلمهم فيما جاءهم به من نصرتهم إلى الإسلام والقيام معه على من خالفه من قومه . فقال أحدهم : إني لأمرط (أشق وأقطع) ثياب الكعبة إن كان الله أرسلك . وقال الثاني : ما وجد الله أحداً يرسله غيرك ؟ وقال الثالث : والله لا أكلمك أبداً ، لئن كنت رسولا من عند الله كما تقول لأنت أعظم خطراً (أي قدراً) من أن أرد عليك الكلام . وإن كنت تكذب ما ينبغي لي أن أكلمك ، وقال الثلاثة : أخرج من بلدنا والحق بما شئت من الأرض ، عنهم وقد يئس من خيرهم . ، وقال لهم : اكتموا علي ، كراهة أن يبلغ قومه ذلك فيشتد أمرهم عليه .

ولما بعد عنهم أغروا عليه سفهاءهم وعبيدهم ، فجعلوا يسبونه ويصيحون به

فاجتمع عليه الناس ووقفوا صفين على طريقه . فكان لا يرفع رجليه ولا يضعهما إلا رضخوهما بالحجارة . حتى أدموا رجليه واختضبت نعلاه بالدماء ، وهم يضحكون عليه ، وزيد بن حارثة يقيه بنفسه حتى لقد شج رأسه شجاجا . ولا زالوا ورجلاه تسيلان دماً إلى أن لجأ إلى حائط (بستان) فاستظل فى حبلة (شجرة الكرم) وقال : اللهم إليك أشكو ضعف قوتى وقلة حيلتى وهوانى على الناس يا أرحم الراحمين ، أنت رب المستضعفين إلى من تكلنى ، إلى عدو بعيد يتجهمنى ، أم إلى صديق قريب ملكته أمرى ، إن لم تكن غاضباً على فلا أبالى إن فضلك أوسع لى . أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات . وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة أن ينزل بى غضبك أو يحل على سخطك . ولك العقبى حتى ترضى . ولا حول ولا قوة إلا بك .

وكان صاحبا البستان عتبة وشيبة بن ربيعة يريانه . فتحركت له رحمهما (لأنهما من بنى عبد شمس بن عبد مناف) فبعثا له قطفاً (عنقوداً) من العنب فى طبق مع خادم يدعى عداسا وكان نصرانياً وقالا له : اذهب به الى ذلك الرجل . فلما وضع الطبق بين يدى النبى مد إليه يده وقال : بسم الله الرحمن الرحيم . وأكل فنظر اليه عداس وقال : مثل هذا الكلام لا ينطق به أهل هذا البلد . فقال له النبى : من أى البلاد أنت ؟ وما دينك ؟ قال : نصرانى من أهل نينوى (بلد قديم مقابل للموصل) فقال النبى : من قرية الرجل الصالح يونس بن متى ؟ قال عداس : وما يدريك ما يونس بن متى ؟ والله لقد خرجت من نينوى وما فيها عشرة يعرفون ابن متى . فكيف عرفته وأنت أمى فى أمة أمية ؟ قال ذاك أخى وهو نبى مثلى ، فأكب عداس على رأسه ويديه يقبلها ـ ونظر اليه ابنا ربيعة فقال أحدهما للآخر ـ لقد أفسد عليك غلامك وجاءهما عداس فقالا له : ويلك مالك تقبل رأس هذا الرجل ويديه ؟ قال .

مافى الأرض خير منه ، فقد أخبرنى بأمر لا يعلمه إلا نبى .

الجن فى نخلة

أما النبى فصلى ركعتين بموضعه بالطائف وسار فنزل نخلة (موضع بقرب مكة) ودخل عليه الليل فقام تحت الظلماء فصلى ركعتين ثم بدأ يقرأ على مهل فسمع بالوادى نهنهة وأنيناً بقية الليل . وفى صباحها جاءه الوحى يقرأ له سورة الجن وفيها أنهم سمعوا القرآن . . وآمنوا به .

(والجن نوع له جسم نارى عاقل ناطق مخلوق من كثيف المادة وخفيفها الشفاف القوى يحس ويسمع، ولكن لا يرى إما لخاصية فى هذه الأجسام أو لقصور فى أبصار البشرية. وفى القرآن. إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم . ونزل القرآن بحكاية ما قالوا حين سمعوا النبى يقرأ القرآن بقوله :

قل (يا محمد فيما تقرأ) أوحى إلى أنه استمع نفر (جماعة) من الجن . فقالوا ، إنا سمعنا قرآناً عجباً (فى حكمته وأسلوبه) يهدى إلى الرشد (الصواب) فآمنا (صدقنا) به ولن نشرك بربنا أحدا ، وأنه تعالى جد (عظمة) ربنا ما اتخذ صاحبة ولا ولدا ، وأنه كان يقول سفيهنا (الجاهل فينا) على الله شططا . (خروجا عن الحقيقة) وأنا ظننا (من ظننا بعد نزول القرآن) أن لن تقول الإنس والجن على الله كذبا . وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن (كان من المعتاد فى العرب أن الرجل إذا نزل وادياً يخافه قال أعوذ بعظيم هذا الوادى من كل شىء مؤذ . يريد كبير الجن فى الوادى) فزادوهم رهقاً (فيزيد الإنس جماعة الجن بتعوذهم هذا ضلالا مزيداً فى ذنوبهم) وأنهم ، (الجن) ظنوا كما ظننتم (يامعشر الإنس) أن لن يبعث الله أحداً

(إشارة من الله إلى انطباق عقيدة مشركى معتقد الإنس فى هذه الأيام) وأنا لمسنا (كناية عن القرب أى جئنا عن قرب) السماء (هذا المرتفع العالى) فوجدناها (بحسب وجدانهم وإحساسهم) ملئت حرساً شديداً (مانعاً مؤثراً فينا بالخوف) وشهباً (شظايا كهربائية محرقة) وأنا كنا (قبل هذا) نقعد منها (نتربص بقرب السماء فى ناحية من الأجواء) مقاعد (نتفرغ ونتخلى) للسمع (أى للاستماع من أجل الاستدلال بواسطة مانسمع من حركات تقابل الأفلاك على مايحدث تحت الشمس ، فلا نجد مانعاً . وقد مضى زمن هذا التربص) فمن يستمع (يتعرض للتسمع) الآن يجد له شهاباً رصداً . (حاضراً خصيصاً ينقض عليه ويصيبه) وأنا لاندرى أشر أريد بمن فى الأرض (وقد منعت الجن عن التماس أخبار السماء) أم أراد بهم ربهم رشداً (خيراً)

دخول النبى مكة

وأقام النبى بنخلة أياما . ثم أراد دخول مكة . فقال له زيد بن حارثة : كيف تدخل عليهم وقد أخرجوك ؟ فقال : يا زيد إن الله جاعل لما ترى فرجا ومخرجا ، وإن الله مظهر دينه وناصر نبيه . ثم سار حتى انتهى إلى حراء فوجد عبد الله بن الأريقط فبعثه إلى الأخنس بن شريق الثقفى ليجيره . فاعتذر الأخنس وقال : إنى حليف والحليف لا يجير (وفى عادة العرب أن المحالف يجير ، ولكن الأخنس أراد التخلص) ثم بعث النبى لسهيل ابن عمرو العامرى ، فجاء واعتذر بقوله : إن بنى عامر لا تجير على بنى كعب (أى لا تجيز جوارها) فبعث إلى مطعم بن عدى بن نوفل بن عبد مناف يقول له : إنى داخل مكة فى جوارك . فقام مطعم وأولاده الستة وتسلحوا

وركب مطعم على راحلة وجعل ينادى : يا معشر قريش إنى قد أجرت محمداً فلا يؤذه أحد منكم. وبعث إلى النبي أن أدخل ، فدخل المسجد وطاف بالبيت. وهناك أربعة من أولاد مطعم فى أركان البيت . واحتبى الباقون بحمائل سيوفهم فى المطاف مدة طواف النبي . وكذا أبوهم مطعم ، وأقبل أبو سفيان على مطعم وقال له : أمجير أنت أم تابع ؟ قال : بل مجير فقال إذن لاتخفر خفارتك وقد أجرنا من أجرت ، وقضى النبي طوافه ورجع إلى بيته .

ضماد بن ثعلبة

كان ضماد بن ثعلبة الأزدى صديقا للنبى قبل البعثة ، وكان يغيب فى قومه ثم يقدم وافداً إلى مكة فقدم مرة فى أول مبعثه ، وسمع الناس يقولون فيه ماقالوا من نسبته إلى السحر أو الكهانة أو الجنون . وكان ضماد عاقلا يطبب ويرقى فى الجاهلية فأتاه وقال إنى راق فهل بك من شيء فأرقيك ؟ فقال النبي: الحمد لله نحمده ونستعينه من يهد الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادى له . وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له وأن محمداً عبده ورسوله . فقال ضماد: أعد كلماتك هذه فأعادها فقال هات يدك أبايعك وآمن به وصدق

الطفيل الدوسى

وقدم مكة الطفيل بن عمر الدوسى . وكان شريفاً فى قومه وشاعراً ونبيلا ، فمشى رجال من قريش وشكوا اليه النبي . فغدا إلى المسجد فإذا النبي قائم يصلى عند الكعبة فسمع حتى انصرف . واتبعه فقال له : إن قومك ذكروا عنك شيئاً . فأعرض على أمرك . فعرض عليه الإسلام، وتلا عليه

آيات من القرآن . فقال : والله ماسمعت قط قولاً أحسن من هذا ولا أمراً أعدل منه وأسلم ، وقال للنبي : يانبي الله إني امرؤ مطاع في قومي . وأنا راجع إليهم فأدعوهم إلى الإسلام وقد يغلبني على دوس حبهم الزنا فادع الله لهم . فقال : اللهم اهد دوساً ، ورحل الطفيل من يومه (وسيأتي بهم مسلمين في وقعة خيبر)

الإسراء

واستيقظ النبي في ليلة على نداء فهب من مرقده واعتلى دابة خصيصة سرت به إلى بيت المقدس ، وهناك التقى ببعض الأنبياء فصلى بهم . ثم عاد إلى فراشه والصبح لم يتنفس . وأصبح فأخبر بمثواه أم هانيء بنت أبي طالب (أخت علي) وأنه يريد أن يخرج فيخبر قومه بذلك إظهاراً لقدرة الله وإدلالا على علو مقام النبوة ، فتعلقت أم هانيء بردائه وهي تقول : أنشدك الله يا ابن عم أن لاتحدث بهذا قريشاً فيكذبك من صدقك . فضرب بيده على ردائه فانتزعه منها وذهب ، فأرسلت خلفه جاريتها نبقة (أسلمت) وقالت لها : اتبعيه فانظري ماذا يقول . ودخل النبي المسجد وجلس ، فذكر أن الناس ستكذبه ، ولكنه كره أن يكتم ماهو دليل على قدرة الله وشاهد لذاته بالكرامة ، فحزن ومر به أبو جهل ورآه مكتئباً فجلس إليه وقال مستهزئاً : هل كان من شيء ؟ قال النبي : نعم أسري بي الليلة . قال : إلى أين؟ قال : إلى بيت المقدس . قال أبو جهل وأصبحت بين ظهرانينا ! قال : نعم ، فلم ير أبو جهل أن يكذبه فينكر ماذكره بحضور قريش . فقال : أرأيت إن دعوت قومك أتحدثهم بما حدثتني ؟ قال : نعم فنادى أبو جهل بعالي صوته يامعشر بني كعب بن لؤي فانفضت له المجالس وجاؤا فجلسوا إليه . . قال أبو جهل للنبي : حدث قومك بما حدثتني . قال

النبي : أسرى بى . قالوا : إلى أين ؟ قال : إلى بيت المقدس حيث صليت ببعض الأنبياء : وكانوا يعلمون أنه لم يدخل بيت المقدس قط ، ولما سمعوا ذلك منه ضجوا وأعظموا الأمر . وصار بعضهم يصفق وبعضهم يضع يده على رأسه تعجباً . وأرسلوا وراء أبى بكر . ثم قال مطعم بن عدى : إن أمرك يا محمد كان قبل اليوم يسيراً غير قولك اليوم فإنه يشهد أنك كاذب نحن نضرب أكباد الإبل إلى بيت المقدس مصعداً شهراً ومنحدراً شهراً . وتزعم أنك أتيته فى ليلة واحدة ! ! واللات والعزى لا أصدقك . وحضر أبو بكر وأخبر بقول مطعم . فقال لمطعم : بئسما قلت لابن أخيك جبهته (استقبلته بمكروه) وكذبته أما أنا فاشهد أنه صادق ، قال مطعم : أتصدق أنه ذهب إلى بيت المقدس وعاد قبل أن يصبح ؟ قال أبو بكر : نعم . لأنى أصدقه فى ماهو أبعد من هذا أصدقه فى خبر السماء فى غدوه ورواحه . يخبرنى أن الخبر يأتيه من السماء إلى الأرض فى ساعة من ليل أو نهار فأصدقه . فمجىء الخبر من السماء بواسطة الملك أعجب مما تعجبون له . قال مطعم : صف لنا يا محمد بيت المقدس (يريد تكذيبه) وقال أبو بكر (يقصد إقامة البرهان على قومه بظهور صدق النبى) إنى يارسول الله قد جئت بيت المقدس فصفه لى ؟ فجعل النبى يقول : باب منه فى موضع كذا ، وباب منه فى موضع كذا . وأبو بكر يقول صدقت ومن يومئذ سماه النبي بالصديق ، حتى أتى على آخر أوصافه . وكاد يفتن بعض من آمن حتى سمعوا البقية . وقال كثير من قريش : وما آية (علامة) ذلك ؟ وهل رأيت فى مسراك وطريقك مانستدل منه على صدقك فقد يكون وصفك لبيت المقدس إنما حفظته ممن ذهب إليه . قال النبى : آية ذلك أنى مررت بعير فلان بوادى كذا فأنفر عيرهم حس الدابة (التى

كان يركبها) ونَدَّ (ضل) لهم بعير فدللتهم عليه وأنا ذاهب إلى الشام . ولما كنت بمحل كذا مررت بعير فلان فوجدت القوم نياماً ولهم إناء فيه ماء قد غطوا عليه بشيء فعثرت الدابة بالإناء فقلب القدح بما فيه . وانتهيت إلى عير بنى فلان فنفرت من الدابة ، وبرك منها بعير لا أدرى كسر أم لا . وسلمت عليهم فقال بعضهم هذا صوت محمد . فقالوا : ومتى تجىء عير بنى فلان ؟ قال يوم كذا يقدمهم جمل أورَق عليه مسح أدَم وغرارتان ، فقدمت العير فى اليوم الذى عينه . ولما قدم أصحاب العير التى سماها ذكروا الحال فكان وفق مانطق النبي .

طلب النبى الاحتماء بالقبـــائل

وكان النبي منذ أمر بتعميم الدعوة ونشرها يوافى الموسم كل عام فيتتبع الحجاج فى منازلهم بمنى والموقف يسأل عن القبائل ومنازلها ، ويأتى إليهم فى أسواق الموسم وهى : عكاظ . ومجنة . وذو المجاز . وكانت العرب إذا حجت تقيم بعكاظ شهر شوال وتجىء إلى سوق مجنة فتقيم عشرين يوما . ثم تجىء سوق ذى المجاز فتقيم أيام الحج . فكان النبي يعرض نفسه عليهم ويدعوهم لأن يمنعوه حتى يبلغ رسالة ربه . فيقول : ألا رجل يعرض على قومه . فان قريشاً منعونى أن أبلغ كلام ربى .

وجاء بنى كندة وبنى كلب وبنى عامر بن صعصعة فقال : إنى رسول الله إليكم آمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً ، وأن تخلعوا ماتعبدون دونه من هذه الأنداد ، وأن تؤمنوا بى وتصدقونى وتمنعونى حتى أنبىء عن الله مابعثنى به . فقال أحد بنى كندة : أرأيت إن نحن بايعناك على أمرك ، ثم أظفرك الله على من خالفك ، أيكون لنا الأمر من بعدك ؟ فقال الأمر إلى الله

يضعه حيث يشاء . فقال الكندى : أنهدف نحورنا (نجعل نحورنا موضع رماية) للعرب دونك . وإذا أظفرك الله كان الأمر لغيرنا ؟ لاحاجة لنا بأمرك . وأبوا جميعهم عليه .

وأتى بنى عبس وبنى سليم وبنى محارب وبنى فزارة وبنى مرة وبنى النضر وبنى عذرة والحضارمة . فردوا عليه أقبح رد ، وقالوا : أسرتك وعشيرتك أعلم بك حيث لم يتبعوك . وكان بنو ثقيف وبنو حنيفة (أهل اليمامة وقوم مسيلمة الكذاب) أقبح فى الرد عليه .

ووقف مع أبى بكر وعلى بن أبى طالب على جماعة . فسألهم أبو بكر — ممن القوم ؟ قالوا : من شيبان بن ثعلبة . فالتفت أبو بكر إلى النبى وقال : بأبى أنت وأمى هؤلاء غرر (أى سادة) القوم . وكان فيهم مفروق بن عمرو (أسلم) وهانىء بن قبيصة (أسلم) ومثنى بن حارثة (أسلم) والنعمان بن شريك (أسلم) وكان مفروق أدناهم من أبى بكر — فقال له أبو بكر : كيف العدد فيكم ؟ قال مفروق إنا لنزيد على الآلف . ولن تغلب الألف من قلة . قال أبو بكر : وكيف المنعة فيكم ؟ قال : علينا الجهد (الطاقة) ولكل قوم جد (حظ وسعادة) قال أبو بكر : وكيف الحرب بينكم وبين عدوكم ؟ قال : إنا لأشد مايكون غضبا حين نلقى ، وإنا لأشد ما يكون لقاء حين نغضب . وإنا لنؤثر (نفضل) الجياد (من الخيل) على الأولاد . والسلاح على اللقاح (ذوات اللبن من الإبل) والنصر من عند الله يديلنا (ينصرنا) ويجعل الدولة لنا . ويديل علينا مرة أخرى . ولعلك أخو قريش ؟ قال أبو بكر : أو قد بلغكم ؟ إن أخا قريش هو ذا (واشار إلى النبى) قال مفروق : بلغنا أنه يذكر ذلك فإلام يدعو ؟ فتقدم النبى وقال : أدعو إلى شهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأنى رسول الله . وأن تؤوونى وتنصرونى . فإن قريشاً قد

تظاهرت (تعاونت) على أمر الله ، وكذبت رسوله واستغنت بالباطل عن الحق والله هو الغنى الحميد . قال مقروف : وإلام تدعونا يا أخا قريش ؟ فقرأ النبي : قل تعالوا أتل ماحرم ربكم عليكم أن لا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحسانا ، ولا تقتلوا أولادكم من إملاق (فقر) نحن نرزقكم وإياهم . ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن . ولا تقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق . ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون . قال مفروق : ماهذا من كلام أهل الأرض عرفناه . وإلام تدعو أيضاً يا أخا قريش ؟ فتلا النبى « إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى . وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون » قال مفروق : دعوت والله إلى مكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال . ولقد أفك (افترى الكذب) قوم صرفوا عن الحق وكذبوك وظاهروا عليك (وكأنما أراد أن يشرك فى الكلام هانئاً فقال) : وهذا هانىء بن قبيصة شيخنا وصاحب ديننا . فقال هانىء : قد سمعنا مقالتك ياأخا قريش . وأرى إن تركنا ديننا إلى دينك بمجلس جلسته إلينا ليس له أول ولا آخر لزلة فى الرأى وقلة نظر فى العواقب ، وإنما تكون الزلة مع العجلة ، ووراءنا قوم نكره أن نعقد عليهم (نقرر بدونهم) عقداً ولكن نرجع ونرجع وننظر وننظر (وكأنما أحب هانىء أن يشرك فى الكلام المثنى بن حارثة فقال) : وهذا المثنى بن حارثة شيخنا وصاحب حربنا . فقال المثنى : قد سمعنا مقالتك يا أخا قريش . والجواب ماذكر هانىء بن قبيصة . وإن أحببت أن نؤويك وننصرك من سائر العرب دون أنهار كسرى فعلنا . فقد نزلنا على عهد أخذه علينا كسرى ان لانحدث حدثاً ولا نأوى محدثا . وهذا الأمر الذى تدعونا إليه تكرهه الملوك ، قال النبى ماأسأتم إذ أوضحتم الصدق

وإن دين الله عز وجل لن ينصره إلا من أحاط به من جميع جوانبه . أرأيتم إن لم تلبثوا إلا قليلا ويورثكم الله أرضهم وديارهم وأموالهم تسبحون الله وتقدسونه : قال النعمان بن شريك : اللهم لك ذا ، فقرأ النبي : « يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً . وداعياً إلى الله بإذنه وسراجا منيراً ، وبشر المؤمنين بأن لهم من الله فضلا كبيراً » قرأ النبي هذا ونهض عن القوم .

وأتى قبائل بكر بن وائل . فسألهم : كيف العدد فيكم ؟ قالوا : كثير . قال أفتجعلون لله عليكم إن هو أبقاكم حتى تنزلوا منازل أعدائكم أن تسبحوا الله ثلاثاً وثلاثين . قالوا : ومن أنت ؟ قال : أنا رسول الله . ومر بهم أبو لهب فقالوا : هل تعرف هذا الرجل ؟ قال : نعم فأخبروه بما دعاهم إليه وأنه يزعم أنه رسول الله . فقال أبو لهب : لا ترفعوا لقوله رأساً فإنه مجنون يهذى من أم رأسه . فنظروا إلى النبي وقالوا له : حتى يجيء شيخنا حارثة . فلما جاء هذا قال : إن بيننا وبين الفرس حرباً . فإذا فرغنا من ذلك عدنا فنظرنا فيما تقول (ولقد كان لبنى بكر بن وائل بعد هذا بقليل حرب مع الفرس فى ذى قار . وكادوا يخذلون فقال لهم شيخهم : ما إسم الرجل الذى دعاكم فى مكة إلى مادعاكم . قالوا : محمد . قال : فهو عزكم : فنادوا باسمه فنصروا على الفرس) ولا زال النبي يعرض نفسه على القبائل فى كل موسم ويقول : لا أكره أحداً على شيء . من رضى الذى أدعو إليه فذاك ، ومن كره لم أكرهه ، وإنما أريد منعى من القتل حتى أبلغ رسالة ربى ، فلم يقبل منه أحد ، ويقولون : قوم الرجل أعلم به ، لانرى أن يصلحنا رجل قد أفسد قومه .

مبايعة العقبة الأولى

وبينا هو فى الموسم يعرض نفسه على القبائل وقد وافى العقبة (التى تضاف

اليها الجمرة فيقال جمرة العقبة وهى على يسار قاصد منى من مكة . وبأسفل منها الآن مسجد يقال له مسجد البيعة) لقى ثمانية من الخزرج . وهم : أبو أمامة بن أسعد بن زرارة ، وعوف بن الحرث بن رفاعة ويعرف بابن عفراء ، ورافع بن مالك بن العجلان ، وقطبة بن عامر بن حديدة ، وعقبة ابن عامر بن ناب ، وجابر بن عبدالله بن رئاب ، وعبادة بن الصامت ، وأبو الهيثم بن التيهان ، فقال لهم النبي : من أنتم ؟ قالوا : نفر من الخزرج . فأخذهم وصاربهم إلى تحت العقبة (مكان مسجد البيعة) وقال : ألا تجلسون أكلمكم قالوا : بلى ، ومن أنت ؟ فانتسب لهم وأخبرهم خبره ودعاهم إلى الإسلام وتلا عليهم شيئاً من القرآن . فأقبلوا إليه منصتين وقد تأثروا لقوله ، وقال بعضهم لبعض همساً : تعلمون أنه النبي الذى توعدكم به اليهود ، فلا يسبقوكم إليه . وأسلم أولئك النفر . فقال النبي : وتمنعون ظهرى حتى أبلغ رسالة ربى . قالوا يارسول الله إن قومنا (يعنون الأوس والخزرج) بينهم من العداوة والشر مابينهم . فإن يجمعهم الله عليك فلارجل أعز منك . وإن تقدم ونحن كذلك متفرقون لايكون لنا عليك اجتماع ، فأمهلنا نرجع إلى عشائرنا لعل الله أن يصلح بيننا . وندعوهم إلى مادعوت فعسى الله أن يجمعهم عليك . ولئن كان كذلك واتبعوك فلا أعز منك ، وموعدك موسم العام المقبل فنهض النبي وانصرفوا .

مبايعة العقبة الثانية

ولما كان العام التالى لقى النبي عند العقبة إثنا عشر رجلا منهم خمسة سبق إسلامهم فى العام الماضى وهم : أبو إمامة أسعد بن زرارة ، وعوف بن عفراء ، ورافع بن مالك ، وقطبة بن عامر بن حديدة ، وعتبة بن عامر بن

وثاب . والسبعة : معاذ بن الحرث بن رفاعه بن عفراء (أخو عوف بن عفراء) وذكوان بن عبد قيس الزرقى الخزرجى . وأبو عبد الرحمن يزيد بن ثعلبة البلوى (حليف الخزرج) وأبو الهيثم بن التيهان الأوسى . وعويم بن ساعدة الأوسى . والعباس بن نضلة بن مالك بن العجلان . وعبادة بن الصامت (على رأى من قال إنه لم يحضر البيعة الأولى) . فقال النبى : أبايعكم على أن تمنعونى ماتمنعون منه نساءكم وأبناءكم ، وعلى ما طلبه أولا ، وبأن يرحل إليهم هو وأصحابه . فبايعوه على أن لا يشركوا بالله شيئاً ولا يسرقوا ولا يزنوا ولا يقتلوا أولادهم ولا يأتوا ببهتان يفترونه ولا يعصوا النبى فى معروف وأن يعطوه الطاعة فى العسر واليسر وأن لا ينازعوا الأمر أهله ، وبأن يقولوا الحق حيث كانوا ، لا يخشون فى الله لومة لائم . فقام العباس بن نضلة وقال : تأخذون محمداً على حرب الأحمر والأسود . فإن كنتم ترون أنكم إذا نهكتكم الحرب أسلمتموه فمن الآن فاتركوه ، وإن صبرتم على ذلك فخذوه . قال الجميع : نأخذه على ما بايعنا وعلى أن لا نسلمه إلا بعد أن يفنى آخر واحد منا . قال النبى : فان وفيتم فلكم الجنة ومن غشى من ذلك شيئاً كان أمره مفوضاً إلى الله . إن شاء عذبه وإن شاء عفا عنه . وطلبوا منه أن يرسل معهم من يعلمهم الدين . فبعث النبى معهم عبدالله بن أم مكتوم (الأعمى) ومصعب بن عمير المعروف بالمقرى يعلمان من أسلم القرآن ، ومن أراد أن يسلم الإسلام ويدعوان من لم يسلم إلى الإسلام ، وانصرفوا راجعين .

ولما قدم مصعب بن عمير المدينة نزل على أبى أمامة وأسعد بن زرارة فكان مصعب يؤم الخزرج فيصلى بهم . ثم يذهب فيؤم الأوس ويصلى بهم لأنهم كرهوا أن يؤم بعضهم بعضاً . وورد على مصعب من النبى كتاب فيه:

أما بعد فانظر اليوم الذى تجهر فيه اليهود بالزبور لسبتهم (أى اليوم الذى يليه يوم السبت) فاجمعوا رجالكم وأولادكم ، فإذا مال النهار عن شطره فتقربوا إلى الله تعالى بركعتين . فجمع مصعب (أى صلى الجمعة) بالناس عند الزوال (وهى أول جمعة فى الإسلام) .

وخرج يوماً أسعد بن زرارة ومعه مصعب بن عمير إلى حائط (بستان) من حوائط بنى ظفر فجلسا فيه ، واجتمع إليهما رجال ممن أسلم ، وكان قد جلس فى متحدث القوم سعد بن معاذ وأسيد بن حضير وهما يومئذ سيدا بنى الأشهل ، (وكلاهما مشرك على دين قومه) فقال سعد : قم يا أسيد فأت أسعد بن زرارة وازجره ليكف عنا ما نكره ، فقد بلغنى أنه جاء بهذا الرجل الغريب يسفه ضعفاءنا . ولولا أسعد منى حيث علمت (لأن أسعد بن زرارة ابن خالة سعد بن معاذ) لكفيتك ذلك ، فأخذ أسيد بن حضير حربته ثم أقبل على أسعد ومصعب . ورآه أسعد فقال لمصعب بن عمير هذا سيد قومه فاصدق الله فيه . ووقف أسيد عليهما وقال : ما جاء بكما إلينا تسفهان ضعفاءنا ، اعتزلانا إن كان لكما بأنفسكما حاجة . فقال له مصعب : أوتجلس فتسمع . فان رضيت أمراً قبلته . وإن كرهته كففنا (منعنا) عنك ما تكره ؟ قال أسيد : أنصفت . وركز حربته وجلس إليهما . فكلمه مصعب بالإسلام . وقرأ عليه القرآن . فقال أسيد : ما أحسن هذا وأجمله ! كيف تصنعون إذا رأيتم الدخول فى هذا الدين ؟ قالا : تغتسل وتتطهر وتغسل ثوبك وتشهد شهادة الحق ثم تركع ركعتين . فقام أسيد فتطهر وصلى ركعتين (صلاة التوبة) وقال : إن ورائى رجلا إن اتبعكما لم يتخلف عنه أحد من قومه وهو سعد بن معاذ . وسأرسله اليكما ، وأخذ حربته وانصرف إلى سعد وقومه . ونظر سعد إليه فقال : أحلف لقد جاءكم أسيد بغير الوجه الذى ذهب به . فلما وقف أسيد على النادى قال سعد : ما فعلت ؟

قال : كلمت الرجلين فوالله ما رأيت بهما بأساً . وقد نهيتهما فقالا نفعل ما أحببت . وحدثت أن بنى حارثة قد خرجوا إلى أسعد بن زرارة ليقتلوه وهم يعرفون أنه ابن خالتك لينقضوا عهدك ، فنهض سعد مغضباً وأخذ الحربة من يدى أسيد وقال : والله ما أراك أغنيت شيئاً . ثم خرج إليهما ، ورآه أسعد فقال لمصعب : لقد جاءك سيد من ورائه قومه ، إن يتبعك لا يتخلف منهم اثنان ، ورآهما سعد مطمئنين فعرف أن أسيداً إنما بعثه ليسمع منهما . فوقف عليهما مبتسما. وقال لأسعد بن زرارة : يا أبا أمامة،والله لولا ما بينى وبينك من القرابةما رمت هذا منى ، تغشانا فى دارنا بما نكره ، فقال مصعب : لتقعدن فان رضيت أمراً قبلته وإن كرهته عزلناعنك ماتكره،قال سعد:أنصفت وركز الحربة وجلس ، فقرأ عليه شيئاً من القرآن فأعجبه . وقال : ما أحسن هذا !! وما تصنعون إذا أردتم أن تدخلوا هذا الدين ؟ قالوا : تغتسل وتطهر ثوبك وتشهد شهادة الحق وتركع ركعتين . وقام سعد ففعل . وأخذ حربته فأقبل على قومه . فقال أسيد وهو يبتسم : علىّ حلف لقد رجع سعد بغير الوجه الذى ذهب به . فلما وقف عليهم سعد قال : يا بنى عبد الأشهل كيف تعرفون أمرى فيكم ؟ قالوا : سيدنا وأفضلنا رأياً وأيمننا (أبركنا) نفساً وأمراً قال : إن رجالكم ونساءكم علىّ حرام حتى تؤمنوا بالله ورسوله ، فأسلم رجال ونساء بنى عبد الأشهل فى يومهم (إلا عمر بن ثابت فقد تأخر إسلامه) ورجع مصعب إلى دار أسعد بن زرارة وأقام عنده يدعو إلى الإسلام حتى أسلم الرجال والنساء من الأنصار (إلا جماعة من الأوس) .

وخرج مصعب وكعب بن مالك وبعض المسلمين مع قوم من حجاج المشركين فقدموا مكة وأخبروا النبى بمن أسلم فسر بذلك . ووعدهم العقبة (أى

أن يوافوه بالشعب بالأيمن إذا انحدروا من منى أسفل العقبة (حيث المسجد المسمى بمسجد العقبة أو مسجد البيعة) وأمرهم أن يأتوا إليه بليل . وأن لا ينبهوا نائماً ولا ينتظروا غائباً ، وفى خلال أيام الحج قابل كعب بن مالك أبا جابر عبد الله بن حرام وعرض عليه الإسلام فأسلم وأخبره بموعد النبى .

مبايعة العقبة الثالثة

ولما فرغ المدنيون من الحج وكانت ليلة الموعد وقد مضى ثلث الليل خرجوا من الرحال يتسلل الرجل والرجلان مستخفين واجتمعوا فى الشعب عند العقبة ثلاثة وسبعون رجلا وامرأتان . ووافاهم النبى ومعه عمه العباس بن عبد المطلب (وكان لم يظهر إسلامه) وقد أوقف على بن أبى طالب على فم الشعب وأبا بكر على فم الطريق . فلما جلسوا تكلم العباس فقال : يامعشر الخزرج والأوس إن محمداً منا حيث قد علمتم . وقد منعناه من قومنا ممن هو على مثل رأينا . فهو فى عز من قومه ومنعة فى بلده . وقد أبى إلا الانحياز إليكم واللحوق بكم . فإن كنتم ترون أنكم موفون له بما دعوتموه إليه ومانعوه ممن خالفه . فأنتم وما تحملتم من ذلك . وإن كنتم ترون أنكم مسلموه وخاذلوه بعد الخروج إليكم فمن الآن فدعوه فإنه فى عز ومنعة من قومه وبلده . فقال البراء بن معرور : إنا والله لو كان من أنفسنا غير ماننطق به لقلنا . ولكنا نريد الوفاء والصدق وبذل مهج أنفسنا دونه . قال العباس : علمتم أن محمداً أبى الناس (يريد بنى شيبان بن ثعلبة إذ قالوا للنبى ننصرك مما يلى مياه العرب دون مياه كسرى) غيركم . فإن كنتم أهل قوة وجلد وبصيرة بالحرب واستقلال بعداوة العرب قاطبة ترميكم عن قوس واحدة . فرووا رأيكم وائتمروا بينكم

ولا تفرقوا إلا عن ملإ واجتماع . فإن أحسن الحديث أصدقه . قالوا : قد سمعنا مقالتك ياعباس . فتكلم أنت يارسول الله وخذ لنفسك ولربك ماأحببت فقال النبي : أمرى لربى عز وجل أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً . ولنفسى أن تمنعونى مما تمنعون به أنفسكم وأبناءكم . قال ابن رواحة فإذا فعلنا فما لنا ؟ قال : لكم الجنة . قال جميعهم : ربح البيع لانقيل ولا نستقيل ، وأخذ البراء ابن معرور بيده وقال : نعم والذى بعثك بالحق لنمنعنك بما نمنع به أنفسنا . وإنا والله لأهل الحرب وأهل السلاح ورثناها كابراً عن كابر . وبينا البراء يتكلم قال أبو الهيثم بن التيهان : نقبله على مصيبة المال وقتل الأشراف ، فقال : العباس بن عبد المطلب : اخفوا خَرْسكم (صوتكم) فان علينا عيوناً ، واستمر أبو الهيثم يقول : إن بيننا وبين الرجال (يعنى اليهود) حبالا (عهوداً) وإنا لقاطعوها . فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا ؟ فتبسم النبي وقال : بل الدم الدم والهدم الهدم (أى دمى دمكم وإن هدمتم الدم أى تركتموه تركته) ذمتى ذمتكم ورحلتى رحلتكم . أنا منكم وأنتم منى ، أحارب من حاربتم وأسالم من سالمتم . قال العباس : عليكم بما ذكرتم ذمة الله مع ذمتكم وعهد الله مع عهدكم يدالله فوق أيديكم ، لتجدن فى نصرته وتشدن أزره . قالوا جميعاً : نعم . فقال العباس : اللهم إنك سامع شاهد وان ابن أخى قد استرعاهم ذمته واستحفظهم نفسه . اللهم كن لابن أخى شهيداً . وقال النبي : أخرجوا إلى منكم اثنى عشر نقيباً فكونوا على قومهم . فأخرجوا تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس . فقال لأولئك النقباء أنتم كفلاء على غيركم وأنا كفيل على قومى (يعنى المهاجرين) وتكلم كل سيد منهم بما يقوى البيعة . وقالوا : يارسول الله مالنا إن نحن وفينا ؟ قال : رضوان الله والجنة . قالوا : رضينا ابسط يدك . فبايعه البراء بن معرور وأسعد بن زرارة وأبو

الهيثم بن التيهان وبايعه السبعون وبايعه المرأتان (من غير مصافحة) وبذلك تمت بيعة العقبة الثالثة وقال لهم النبي : انفضوا إلى رحالكم .

ونفر الناس من منى . ونمى الخبر إلى قريش وتحققوه فاقتفوا آثار الأنصار فأدركوا سعد بن عبادة . فربطوا يده فى عنقه ولازالوا يضربونه حتى دخلوا به مكة . وعطف عليه أبو البحترى وقال همساً . أما بينك وبنى أحد من قريش جوار ولا عهد ؟ قال بلى كنت أجير لجبير بن مطعم وللحرث بن حرب بن أمية (أخى أبى سفيان) قال ويحك فاهتف باسم الرجلين . ففعل سعد ذلك . فقال : إن رجلا من الخزرج يضرب بالأبطح يهتف باسميكما . فقالا : من هو ؟ قال يقول : إنه سعد بن عبادة ، فجاءا إليه وخلصاه .

المؤاخاة بين المهاجرين وهجرتهم

وعمدت قريش إلى من آمن فى مكة فشددت بالتضييق عليهم ونالت منهم مالم يكونوا نالوه من الشتم والإهانة . وجعل البلاء ينهال عليهم حتى كانوا بين معذَّب ومفتون فى دينه . وشكوا ذلك إلى النبى . فأخذ يؤاخى بينهم على المواساة والحق ليرتفق الأدنى بالأعلى وليتعاون الفقير بما بيد الغنى والضعيف بالقوى فى العشيرة . فآخى بين أبى بكر وعمر . وبين حمزة وزيد بن حارثة وبين عثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف . وبين الزبير وابن مسعود . وبين عبادة بن الحرث وبلال . وبين مصعب بن عمير وسعد بن أبى وقاص وبين أبى عبادة وسالم مولى أبى حذيفة ، وبين سعيد بن زيد وطلحة بن عبيد الله وبين على بن أبى طالب ونفسه . وهكذا آخى بين البقية . ثم قال لهم : هجرتكم دار يثرب . فمن أراد فليخرج إليها . فخرجوا أرسالا يخفون حركاتهم . وكان قد حضر من الحبشة عبد الله بن عبد الأسد المخزومى وزوجته

أم سلمة (أخذ النبي فى الرضاع) فكان أول مهاجر . فأركب زوجته وابنها سلمة على بعير وأخذ بخطامه . فخرج نفر من قوم أم سلمة فقالوا : يا أبا سلمة . قد غلبتنا على نفسك فلا نترك لك ابنتنا تسير بها فى البلاد ، فجاءهم رجال من قوم أبى سلمة وقالوا لهم : إن ابننا معها فإن نزعتموها من زوجها أخذنا ولدنا ، فأخذ أم سلمة قومها . واستلم سلمة قوم أبيه . وسار عبد الله أبو سلمة إلى المدينة . فكانت أم سلمة تخرج كل غداة إلى الأبطح وتبكى . ومر بها رجل من بنى عمها فأشفق عليها . وذهب إلى قوم زوجها وقال : ارحموا هذه المسكينة . فرقتم بينها وبين ولدها . فأرجعوا إليها ولدها فركبت بعيراً وخرجت تطلب المدينة فلقيها عثمان بن طلحة (صاحب مفتاح الكعبة : أسلم) وقال: إلى أين السيدة ؟ قالت : إلى زوجى بالمدينة . قال : أو ما معك أحد ؟ قالت : لا مامعى إلا الله . فقال : والله لا أتركك . وأخذ بخطام البعير وسار معها . فكان إذا وصل المنزل أناخ بها ثم استأخر . حتى إذا نزلت جاء فحط عن البعير وقيده فى شجرة وذهب بعيداً واضطجع . فاذا دنا الرواح قام فرحل البعير وقدمه واستأخر . وقال لها : اركبى فتركب ويأخذ بخطام الجمل حتى أوصلها إلى زوجها .

وهاجر بعد ذلك كثير ممن أسلم فى خفاء غير عمر بن الخطاب فإنه ذهب فتقلد سيفاً وتنكب قوساً وانتقى أسهماً فى يديه واختصر (علق عند خاصرته) عنزته (حربته) ومشى إلى الكعبة فطاف بها وقريش بفنائها . ثم أتى المقام فصلى ركعتين ونظر فيمن جلس من قريش وقال : شاهت الوجوه ، أرغم الله هذه المعاطس (الأنوف) من أراد أن تثكله (تفقده) أمه ويؤتم أو أو ترمل زوجته فليلقنى وراء هذا الوادى . ومضى لوجهه ولم يتبعه أحد . وهاجر معه أخوه زيد بن الخطاب والزبير بن العوام وعياش بن أبى ربيعة

وعشرون راكباً . فقدموا المدينة ونزلوا على رفاعة بن عبد المنذر .

وكان هشام بن العاصى قد وعد عمر بن الخطاب أن يهاجر معه . فعرف ذلك أهله فأخذوه واحتبسوه وعذبوه . وذهب أبو جهل وأخوه الحرث بن هشام (أسلم) إلى المدينة عقب سفر عمر بن الخطاب . وكلما عياش بن أبى ربيعة (وكان أخاهما لأمهما وابن عمهما) فقالا له : إن أمك نذرت أن لا تغسل رأسها ولا يمس رأسها مشط ولا تدخل كنا حتى ترجع إليها . وأنت فى دين منه البر بالوالدين . فارجع إلى أمك واعبد ربك كما تعبده فى المدينة ، فرقت نفسه وصدقهما وأخذ عليهما المواثيق أن لا يغشياه بسوء . فقال له عمر : ما يريدان إلا فتنتك فى دينك فاحذرهما . والله لو آذى أمك القمل لامتشطت ولو اشتد عليها حر الشمس لاستظلت فقال عياش : أبر أمى ولى هناك مال آخذه . فقال عمر : خذ نصف مالى ولا تذهب معهما . فأبى عياش ، فقال عمر : إذا كنت قد صممت فخذ ناقتى هذه فإنها نجيبة ذلول فإن نابك منهما ريبة فانج عليها فأبى وخرج معهما إلى مكة . ولما صاروا خارج المدينة شدا يديه إلى خلف وجلداه فوق المائة جلدة ، ودخلا به مكة مكتفاً فى النهار وهما يقولان : ياأهل مكة هكذا فافعلوا بسفهائكم ثم ألقى فى السجن . وأخيراً حبس مع هشام بن العاص وغيره كل واحد فى قيد .

وفيمن هاجر سالم مولى أبى حذيفة ، وكان أكثرهم أخذاً للقرآن ، فكان يؤم المهاجرين وفيهم عمر بن الخطاب . وهاجر أصحاب النبى غير على وأبى بكر ومن كان مستضعفاً أو محبوساً ، واشتد أذى قريش على مثل هؤلاء ، وكان أبو بكر يستأذن النبى فى الهجرة . فيقول له : لا تفعل لعل الله يجعل لك صاحبا . فطمع أبو بكر فى أن يكون النبى صاحبه . وعلف راحلتين كانتا عنده استعداداً للسفر .

مؤامرة قريش على قتل النبي

ورأت قريش أن النبي أصاب منعة من أهل المدينة وهم قوم أهل سلاح وبأس وحذر ، وأنه سيجمع على حربهم . فاجتمع فى دار الندوة منهم نحو مائة رجل وقالوا : إن هذا الرجل قد كان من أمره ما رأيتم . ولا نأمنه على الوثوب علينا بمن اتبعه . فهاتوا الرأى فيه . فقال أبو البحترى بن هشام احبسوه فى الحديد ، وتربصوا ما أصاب أشباهه الشعراء قبله . قال آخر : لو أنكم حبستموه ليخرجن أمره من وراء الباب الذى أغلقتموه عليه إلى أصحابه فيثبوا عليكم وينتزعوه ويكاثروكم به فيغلبوكم .

فقال أبو الأسود ربيعة بن عمرو : نخرجه عنا فينفى من بلادنا ولا نبالى إلى أين ذهب . قال غيره : ما هذا رأى ، والله لو فعلتم ذلك ما أمنتم أن يحل على حى من العرب فيغلب عليهم بحسن حديثه وحلاوة منطقة حتى يتابعوه . ويسير بهم إليكم ويفعل بكم ما أراد . قال أبو جهل : إن لى فيه رأياً ما أراكم وقعتم عليه . أرى أن تأخذوا خمسة رجال من خمس قبائل يعطى كل رجل سيفاً صارماً فيضربوه ضربة رجل واحد فيقتلوه ، ويتفرق دمه على القبائل فلا تقدر بنو عبد مناف على حرب قومهم جميعاً ونعقله لهم . فأجمعوا على ذلك ، وبالغوا فى كتمان الأمر فلم يعلم به أحد . وعلمه النبي من الوحى كما علم الليلة التى نووا أن يوقعوا فيها القتل . فجاء بيت أبى بكر ظهراً واستأذن فى الدخول . وبلغ أبو بكر مجيئه فقال : والله ما جاء فى هذه الساعة إلا لأمر حدث . ودخل النبي فتنحى أبو بكر عن سريره وجلس عليه النبي ، وقال : أخرج من عندك . قال : إنما هم أهلك (لأنه كان قد عقد على عائشة ولم يكن فى البيت سواها وأسماء أختها وأم رومان أمها وعامر بن فهيرة مولى أبى بكر) فقال : قد أذن لى فى الخروج من مكة إلى المدينة . فبكى أبو بكر

وقال : ألصحبة يارسول الله : قال : نعم . قال أبو بكر : فخذ إحدى راحلتى هاتين . قال النبى : بل بالثمن فإنى لا أركب بعيراً ليس لى . قال أبو بكر : فهو لك . قال : ولكن بالثمن الذى ابتعته به . قال قد أخذته بكذا . فطلب منه أن ينتظره مختفياً فى ساعة ومكان معينين . ويأمر عامر بن فهيرة مولاه بأن يلحقهما بالراحلتين فى اليوم الثالث فى غار ثور ثم قام عنه .

وجاءت ليلة الموعد فأمر النبى على بن أبى طالب فنام مكانه وقال له : اتشح ببردى هذا الحضرى الأخضر ، ونم فيه فانه لن يخلص إليك شيء تكرهه . وأمره بأن يتخلف بعده حتى يؤدى عنه ودائع كانت عنده للناس (وكانت عنده أمانات لنفر من قريش استودعوه إياها لما يعلمون من صدقه وأمانته) .

ولما كان الليل اجتمع من قريش حوالى المائة على باب النبى يرصدونه حتى ينام . وجعلوا يتطلعون من شق الباب يرقبون بياته وطلوع الفجر لتنفيذ ما اتفقوا عليه . وزلف (قرب) الوقت فازدحموا على الباب يتهاوشون ويتهامسون ويغدون ويروحون . فخرج النبى من الباب يتلو « سورة يس » حتى آية « وجعلنا من بين أيديهم سداً ومن خلفهم سداً فأغشيناهم فهم لا يبصرون » فلم يره أحد منهم . ونثر وهو يقرأ على رءوسهم رشاشاً من التراب ، وذهب فوجد أبا بكر فى انتظاره تحت الظلماء فرافقه حتى تواريا بغار ثور .

وقال أحد قريش : إنى لأظن محمداً قد خرج وترك لنا علامة الخيبة . فإنى أشعر على رأسى بتراب رقيق . فوضع كل رجل منهم يده على رأسه فإذا عليه تراب . فجعلوا ينظرون من ثقوب الباب فيرون رجلا مسجى (مغطى) بالبرد الأخضر . فيقولون إنه لمحمد وعليه برده . وكان تسور جدار

البيت ممكناً . فهموا بتسوره فصاحت امرأة من الدار . فقال بعضهم : إنها لسبة فى العرب أن يتحدث عنا أنا تسورنا الحيطان على بنات العم وهتكنا بأيدينا ستر حرمنا . فأقاموا بالباب يحرسون النائم حتى يقوم فى الصباح ويفعلوا به ماا تفقوا عليه . ولما أصبحوا قام على عن الفراش . فقالوا : أين صاحبك قال : لاأدرى فتفرقوا عنه .

وفقدت قريش النبى فطلبوه بأعلى مكة وأسفلها وبعثوا القافة (جمع قائف وهو الذى يعرف الأثر) فى كل وجه فوجد الذى سار على طريق غار ثور الأثر بادياً فاتبعه وجماعة من قريش حتى انقطع عند الغار وقال . هنا انقطع الأثر ولا أدرى أخذ يميناً أم شمالا . وإن منهما لأثر قدم أبى بكر وقدم آخر لا أعرفه . فجعلوا ينظرون إلى الغار فرأوا حمامتين وحشيتين قد عششتا بباب الغار وبأسفلها قد ملأ العنكبوت فتحة الباب إلا نحو ذراع . فقال أحدهم : أدخلوا الغار . فقال أمية بن خلف : وما أربكم (أى حاجتكم) إلى الغار ؟ إن فيه لعنكبوتاً أقدم من ميلاد محمد . فقال أبو بكر للنبى : إن هذا الرجل ليرانا (وكان فى مواجهه) فقال النبى : لاتحزن إن الله معنا ورجعت قريش فى طريقها .

ولبث أبو بكر بغار ثور ثلاث ليال ووافاهما عامر بن فهيرة مولى أبى بكر بالراحلتين فى نحو الظهر (قبيل الظهر) فخرجا إليه . ونظر النبى إلى مكة وقال : ماأطيبك من بلد وأحبك إلى ! ولولا أن قومى أخرجونى منك ما سكنت غيرك ، ووقف قليلا صامتاً . وقال : الحمد لله الذى خلقنى ولم أك شيئاً اللهم أعنى على هول الدنيا وبوائق الدهر ومصائب الليالى والأيام . اللهم احجبنى فى سفرى ، واخلفنى فى أهلى وبارك لى فيما رزقتنى ، عليك فدلنى وعلى صالح خلق فقومنى . وإليك فحببنى ، وإلى الناس فلا تكلنى أنت رب المستضعفين

وربى . اعوذ بوجهك الكريم الذى أشرقت له السموات والأرض وكشفت به الظلمات وصلح عليه أمر الأولين والآخرين أن يحل بى غضبك أو ينزل علىَّ سخطك . أعوذ بك من زوال نعمتك وفجأة نقمتك . ولا حول ولا قوة إلا بك .

وركب النبي وأردف أبو بكر عامراً على راحلته وساروا ساعات ومروا بصخرة سفح (منحدر) جبل ، فقام النبي فى ظلها . وهناك راعى غنم فاستحلبه أبو بكر بثمن فحلب له وسقى النبي وعامراً وشرب هو . ثم ارتحلوا فمروا بمقام أم معبد عاتكة بنت خالد الخزاعية (أسلمت وكانت امرأة برزة عفيفة جلدة قوية تحتبي بفناء القبة وتسقى وتطعم من يمر بها) وكانت هى وقومها مسنتين (مقحطين) فطلبوا منها لبناً أو لحماً أو تمراً ولو بالثمن فلم يجدوا . وقالت : والله لو كان عندنا شيء ما أعوزنا القرى . فنظر النبي إلى شاة فى كسر الخيمة خلفها الجهد (الهزال) عن الغنم فقال: هل بهذه من لبن ؟ قالت هى أجهد من ذلك (تريد أنها ضعيفة) قال : أفتأذنين لى أن أحلبها ؟ قالت : نعم بأبى أنت وأمى إن رأيت بها حلباً (لبنا) فدعا بالشاة ودعا الله فدر ضرعها لبناً . وأتى بإناء فحلب وشرب هو ومن معه وأم معبد وبقى اللبن زائداً . فقال : ارفعى هذا إلى أبى معبد (أسلم) ثم استتبعوا السير (وجاء أبو معبد بعد ارتحالهم وأخبر بما جرى فقال : ذاك أخو قريش : وكان هو وأولاده وقومه بعد هذا يؤرخون بنزول الرجل المبارك عندهم) .

واهتمت قريش بالقبض على النبي . فجاء أبو جهل — وكان رجلا فاحشاً خبيثاً — إلى بيت أبى بكر فخرجت له ابنته أسماء (وهى لا تعرف أين سار أبوها) فقال لها : أين أبوك يا ابنة أبى بكر ؟ قالت : والله لا أدرى أين هو . فلطم خد أسماء بيده لطمة خرج منها قرطها . وذهب فى نفر من قريش إلى سراقة بن مالك المدلجى (أسلم) فقالوا : يا سراقة إنا جعلنا دية عن كل من محمد وأصحابه

لمن يأتى بهم أسرى أو قتلى . وقال واحد : وقد رأيت ياسراقة آنفا سواداً بالساحل وإنى لأظنه محمداً وأصحابه . قال سراقة : ليسوا من سميت . ولكنك رأيت فلانا وفلانا انطلقوا بأعيننا ثم قام سراقة فأمر جاريته أن تخرج بفرسه من وراء أكمة فتحبسها له . وأخذ رمحه وخرج من ظهر البيت . وسار يكد حتى لحق النبى وصاحبيه . وكان النبى إذا مشى لا يلتفت . ونظر أبو بكر فقال : هذا الطلب قد لحقنا . قال النبى لا تحزن إن الله معنا . واقترب سراقة منهما وقال : ما يمنعك منى اليوم يامحمد قال : يمنعنى الجبار الواحد القهار . وأراد سراقة بهما الأذى فخدرت (توقفت عن الحركة) يداه وأعصابه . وقصرت به فرسه . فقال: انظرونى أكلمكم فوالله لا يأتيكم منى شىء تكرهونه . وقد علمت أنكم دعوتم على فادعوا لى . وأخبرهما بحرص قريش على الظفر بهما وبذل المال لمن يحصلهما وعاهدهما على أن لا يقاتلهما ولا يخبر عنهما إلى ثلاث ليال . وعرض عليهما الزاد فامتنع النبى وقال : إذا لم ترغب فى الإسلام فلا حاجة لنا بما تعرض وكتب النبى له كتاباً يعده فيه بأموال وساروا فاجتازوا فى الطريق بعبد يرعى غنما . فاستسقاه أبو بكر فقال : ماعندى غير شاة حملت عام أول وما بقى بها لبن . فاعتقلها النبى فحلبت فسقى أبا بكر وعامراً والراعى وشرب هو وقال: ساقى القوم آخرهم. فقال الراعى ومن أنت أيها الرجل المبارك ؟ قال . أوتراك تكتم على فأخبرك؟ قال ـ نعم ـ قال : فإنى محمد رسول الله . قال . أنت الذى تزعم قريش أنه صابى. قال : يقولون ذلك . قال : أشهد أنك نبى وأن ماجئت به حق فانه لا يفعل ما فعلت الا نبى وأنا متبعك قال : إنك لا تستطيع ذلك اليوم . فاذا بلغك أنى قد ظهرت فأتنا .

وارتحلوا عنه وما ساروا بعيداً . وكان قد بلغ بريدة بن الحصيب أمير بنى سهم أن قريشاً جعلت مائة من الإبل لمن يرد النبى . فركب فى سبعين من قومه

فلقى النبي وأبا بكر واستقبله النبي فقال : من أنت ؟ قال بريدة . فالتفت متفائلا إلى أبي بكر وقال : برد أمرنا وصلح : ثم قال : وممن أنت ؟ قال : من أسلم (بطن من بني أسهم) قال النبي : سلمنا ثم قال : وممن ؟ قال من بني سهم . قال: خرج سهمك ياأبا بكر : وقال بريدة للنبي . ومن أنت ؟ قال : محمد بن عبدالله رسول الله . فأسلم بريدة ومن كان معه . ونزل مع النبي إلى الصباح . وكانوا قد قاربوا المدينة . فقال بريدة : يارسول الله لاتدخل المدينة إلا ومعك لواء ثم حلّ عمامته وشدها فى رمح .

وكان المسلمون فى المدينة لما سمعوا بخروج النبي من مكة يخرجون بعد المسافة المعتادة فى الغداة إلى الحَرَّة ينتظرونه حتى يردّهم حر الظهيرة إلى ثلاثة أيام وأتى رجل من البادية كان قد أرسله النبي إلى أبي أمامة أسعد بن زرارة يخبر بقدومه . فثار المسلمون إلى السلاح فى خمسمائة من الأنصار . وصعدت ذوات الخدور على الأحاجير (الأسطحة) ووقف الصبيان والولائد على الطريق تغنى :

طلع البدر علينا من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا ما دعا لله داع
أيها المرسل فينا جئت بالأمر المطاع

واستقبله الأنصار بظهر الحرة فى ظل نخلة كانت هناك وهم يقولون : ركبا آمنين مطاعين ، والنبي يبتسم ويرحب ويسلم فرحا مستبشراً . وسار به هذا الجمع المحتشد إلى قباء حيث نزل فى دار بني عمرو بن عوف على كلثوم بن الهدم شيخ بني عمرو بن عوف (بطن من الأوس فى ظاهر المدينة) وحينئذ سمع النبي كلثوماً ينادى : يانجيح ، فقال لأبي بكر : نجحت يا أبا بكر .

وهدأت الناس قليلا فسار النبي فنزل على سعد بن خيثمة لأنه كان عزبا (لاأهل له هناك وكان منزله يسمى منزل العزاب) فجلس يحدث الناس . ونزل

أبو بكر دار حبيب بن أساف . ثم عاد إلى مجلس النبي فكان من لم ير النبي من الأنصار يحي أبا بكر ظاناً أنه النبي . حتى جاءت الشمس على النبي فأقبل أبو بكر يظلل عليه بردائه فعرف الأنصار أنه النبي . وأقام فى قباء أربعة أيام بنى بها مسجد قباء .

ثم أمر فنودى فى الناس بالدخول إلى المدينة . فقال بنو عمرو بن عوف: يارسول الله أخرجت ملالا لنا أو تريد خيراً من دارنا ؟ قال : بل أمرت بقرية تأكل القرى (أى تغلب وتقهر القرى) وركب الناقة وترك زمامها ، فخرج الناس من قباء بين ماش وراكب ، يتنازعون على استلام خطام الناقة تبركا وتعظيما حتى دخل المدينة والخدم والصبيان قد ملأوا الطرق حول الناس يقولون : الله أكبر الله أكبر جاء رسول الله . ولعبت الحبشة بحرابها وأدركته صلاة الجمعة فى مسجد بنى سليم (مسجد فى بطن الوادى على يمين القاصد إلى مسجد قباء ويسمى مسجد الجمعة) فصلاها بمن معه من المسلمين وكانوا زهاء مائة (وهى أول جمعة صلاها النبي بالمدينة) وخطب به خطبة ورد فيها « من استطاع أن يقى وجهه من النار ولو بشق تمرة فليفعل ، ومن لم يجد فبكلمة طيبة فإنها تجزى الحسنة بعشر أمثالها » ثم ركب متوجهاً إلى المدينة . وصارت الناقة تنظر يميناً وشمالا . وكلما مر على دار من دور الأنصار دعوه إلى المقام عندهم ويقولون : يارسول الله هلم إلى القوة والمنعة . فيقول : خلوا سبيلها (يعنى الناقة) فإنها مأمورة.

ومر على دار بنى سالم بن عوف فسأله عتبة بن مالك ونوفل بن عبدالله بن مالك وعبادة بن الصامت . فقالوا : يارسول الله أقم عندنا فى العز والثروة والمنعة فان فينا العدد والعدة والحلقة (أى السلاح) ونحن أصحاب الحلائق والدرك . فتبسم النبي وأثنى خيراً وقال : بارك الله فيكم خلوا سبيلها فانها مأمورة . ومر على بنى بياضة فسأله زياد بن لبيد وفروة بن عمرو بمثل ما تقدم فتبسم وشكر . وقال : خلوا سبيلها . ووردت الناقة بنى ساعدة فسأله سعد بن عبادة والمنذر بن

عمرو وأبو دجانة بمثل ما تقدم فأثنى عليهم . وقال : خلوا سبيلها . حتى مرت بدار بنى النجار (أخوال عبد المطلب) فقالوا : نحن أخوالك هلم إلى العدد والمنعة والعزة مع القرابة ، لاتجاوزنا لغيرنا ، فان قومك أولى بك . فقال: خلوا سبيلها.

وبركت الناقة بمحل من محالهم (محل مسجد النبي) فى دار بنى مالك بن النجار وكان فى موضع يجفف فيه التمر . ثم مالبثت أن ثارت فبركت على باب أبى أيوب خالد بن زيد الأنصارى من بنى مالك بن النجار . ومكثت قليلا وثارت فرجعت إلى دار بنى مالك بن النجار فبركت وألقت جرانها (باطن عنقها) بالأرض فكان فى مبركها الأول بيته وفى الثانى مدفنه وأرزمت (صوتت) وكانت دار بنى النجار وسط دور الأنصار وأفضلها وهى دار أخوال عبد المطلب) فجاء جبار بن صخر من بنى سلمة وداره قريبة من بنى النجار فجعل ينخس الناقة رجاء أن تقوم فتنزل فى دار بنى سلمة فلم تقم ، ونزل النبى عن الناقة وهو يقول : رب أنزلنى منزلا مباركا وأنت خير المنزلين ، هذا المنزل إن شاء الله . وأتاه أبو أيوب فقال : إن منزلى أقرب المنازل فأذن لى أن أنقل رحلك . قال: نعم . فنقله وأناخ الناقة فى ظلاله . ونزل النبى فى السفل من بيت أبى أيوب وأبو أيوب فى العلو . فرغب إليه أن يكون فى العلو . فقال النبى : ياأبا أيوب إن الأرفق بنا ونحن يغشانا الناس أن تكون فى سفل البيت . فلم يزل أبو أيوب يلح ويتضرع إليه حتى تحول إلى العلو . وتفرق غلمان بنى النجار فى الدروب ينادون : جاء محمد رسول الله الله أكبر، وخرجت جويريات من بنى النجار يضربن بالدفوف ويقلن :

نحن جوار من بنى النجار ياحبذا محمد من جار

وقال النبى : خير دور الأنصار بنو النجار ثم بنو عبد الأشهل ثم بنو الحارث

ثم بنو ساعدة ، وفى كل دور الأنصار خير . وبلغ سعد بن عبادة (وهو من بنى ساعدة) فوجد فى نفسه وقال : خلفنا فكنا آخر الأربع !!! أسرجوا لى حمارى فأتى رسول الله . فقال له سهل بن أخته : أو ترد على النبى فيما علم ؟ أليس حسبك أن تكون رابع أربعة . ومالم يسم أكثر مما سمى ! قال سعد : الله ورسوله أعلم . وأمر أن يفك سرج حماره : ومكث النبى فى دار أبى أيوب سبعة أشهر حتى بنى المسجد وبعض مساكنه فتحول إليها .

أما على بن أبى طالب فقد قام بمكة بعد أن توجه النبى إلى المدينة بالأبطح ينادى : من كان له عند رسول الله وديعة فليأت تؤد إليه أمانته . ولما نفدما عنده كان قد ورد عليه كتاب من النبى يأمره بالشخوص اليه . فابتاع ركائب ساربها إلى المدينة ومعه الفواطم وأم أيمن وولدها وجماعة من ضعفاء المؤمنين فكان فى طريقه يسير الليل ويكمن النهار . وقدم المدينة فنزل على كلثوم بن الهدم اقتداء بالنبى .

وتنافس الأنصار يريد كل واحد أن ينزل عليه المهاجرون . فكانوا يعملون القرعة فكل من أصابته بواحد استنزله عنده بأمواله

وأصاب وعك الحمى أبا بكر وبلالا وعامر بن فهيرة . وبلغ النبى ذلك . فنظر إلى السماء وقال : اللهم حبب إلينا المدينة كحبنا مكة أو أشد : اللهم بارك لنا فى صاعنا ومدنا (الصاع والمد مكاييل) وصححها لنا وانقل حماها (بتشديد الميم) إلى الجحفة فكانت الجحفة بعد ذلك موضع وباء ، (وسلمت المدينة وشفى المرضى) .

وقدم أصيل من مكة فسئل والنبى جالس : كيف تركت مكة ؟ قال : تركتها حين ابيضت أباطحها (الأباطح جمع أبطح مسيل واسع فيه دقاق الحصى) وأحجن (نضج) ثمامها (الثمام نبت خفيف له خوص) واغدودق (كثر) إذخرها

(الإذخر نبات) وأبشر (جاء بالبشارة) سلمها (السلم جمع سلمة شجر العضاة. يعظم وله شوك) فأغرورقت عينا النبي (أسفاً على أن غلب لأهلها وأخرج منها قهراً وهي بلدمنبته ومناخ تربيته) وقال: تشوقنا ياأصيل، دع القلوب تقر.

دخول النبي على عائشة

وفى هذه الأيام طلب النبي الدخول على عائشة فجهزت له وبنى بها

بناء مسجد قباء

وشرع النبى فى بناء مسجده بقباء فقال يا بنى النجار ثامنونى (اذكروا الثمن) بحائطكم (بستانكم) قالوا: لا نطلب ثمنه إلا إلى الله. فأبى النبى ذلك وابتاعه بعشرة دنانير (أداها من مال أبى بكر)

وبنى المسجد من اللبن (الطين المجفف) وسقفه بالجريد وجعل عمده من خشب النخل. وكان النبي يعمل بيده مع العاملين فى البناء.

وكان عثمان بن مظعون رجلا متأنقاً مترفهاً فيحمل اللبنة (القطعة من الطين) فيجافى بها عن ثوبه. فإذا وضعها نفض كمه ونظر إلى ثوبه. فنظر إليه على بن أبى طالب فأنشد على سبيل المباسطة والمطايبة كما هى عادة المجتمعين على عمل

لا يستوى من يعمل المساجدا يدأب فيهـــا قائماً وقاعدا

ومن يرى عن التراب حائدا

فسمع ذلك عمار بن ياسر فجعل يرتجز قول على بغير أن يعنى أحداً ومر بعثمان بن مظعون فظنه يعنيه. فقال له: ياابن سمية لأعرفن بمن تعرض (وبيد عثمان حديدة) لتكفن أو لأعترض بهذه وجهك. وسمعه النبي فغضب. وقال البعض لعمار إن النبي قد غضب فيك، ونخاف أن ينزل فيها قرآن. فقال عمار: أنا

أرضيه كما غضب : وجاء إلى النبي فقال : يارسول الله مالى ولأصحابك ؟ قال : مالك ؟ قال . يريدون قتلى . يحملون لبنة لبنة ويحملون على لبنتين (قال هذا عمار وهو يبنى) فأخذ النبي بيده وطاف به المسجد وهو يمسح وفرته (الشعر الذى فى جهة القفا) ويقول : يا ابن سمية ليسوا بالذين يقتلونك ، تقتلك الفئة الباغية .

وبعث النبى زيد بن حارثة وأبا رافع مولاه إلى مكة فقدما بفاطمة وأم كلثوم وسودة بنت زمعة (أما رقية فقد كانت سبقت مع زوجها عثمان بن عفان وتأخرت زينب عند زوجها أبى العاص بن الربيع حتى أسر ببدر) وبعث أبو بكر عبدالله بن أريقط ومعه كتاب إلى عبد الله بن أبى بكر . فقدم المدينة ومعه أم رومان زوجة أبى بكر وأم أبى بكر وعائشة وأسماء .

وشرع النبى يؤاخى بين المهاجرين والأنصار لتذهب عنهم وحشة الغربة. وليؤنسهم من مفارقة الأهل والعشيرة ، ويشد أزر بعضهم ببعض . فكان الذين آخى بينهم خمسة وأربعين من المهاجرين وخمسة وأربعين من الأنصار ولقد بذل جماعة الأنصار مزيد الجهد لترضية المهاجرين . وكتب النبى كتاباً بين المهاجرين والأنصار ودعا فيه يهود بنى قينقاع وبنى قريظة وبنى النضير وصالحهم على ترك الحرب والأذى وأن لايحاربهم ولا يؤذيهم ولا يعينوا عليه أحداً وإن دهمه عدو نصروه وعاهدهم على ذلك وأقرهم على دينهم وأموالهم

وفى هذه الأثناء توفى أسعد بن زرارة وكان نقيباً لبنى النجار وحزن عليه النبي حزناً شديداً ، ولم يقم لبنى النجار نقيباً بدله . وطلبوا منه ذلك فقال : لهم أنتم أخوالى وأنا نقيبكم (وذلك ابتعاداً من أن يخص بالنقابة أحدهم فيغضب غيره) فكانوا يفخرون بأن النبي نقيبهم .

المعراج

ووافت الليلة المشرفة، فرأى النبى فى منامه أن قد صعد به إلى السماء (أى هذا العلو المرئى) مكتنفاً بنور كسحابة قد تمثل فى طيها بذاته البشرية . فطاف شيئاً من ملك الله ليريه الله بعضاً من مقامه وكرامته عنده . وليكشف له بحال يشبه المحسوس بعضاً من عظيم قدرته ، فكان من آونة إلى أخرى فى خلال فترة قصيرة أوسعها الله فى تصور روحه الكريم . فكانت بمقدار زمن ، يلهم فينادى بعالى صوته : لا إله إلا الله ، محمد رسول الله . ودام يسمع أصوات المسبحين والمهللين والمكبرين من عمار الكواكب والعوالم العالية . حتى بلغ مستوى انتهى إليه مدى المستحدثات، وفنيت عنده الحركات : وانشق جانب تلك السحابة فبصر بمدرج من السندس انتقل إليه بالهام . وذكر أن قد خلص إلى المنزل الأخص والمدى الأدنى من الحيث المعد لرحلته وغشيه من النور فوق احتمال الأمثال إشعاراً بأسباغ الرضوان . فرأى ولكن حجبه الجلال أن يرى أكثر مما علم . وهو أقصى مايمكن أن يعلم المحدث من القديم . ثم سمع افتراض الصلاة . ثم عاد فأخبر أصحابه بما رأى فسمعوا وأطاعوا .

اختيار الآذان

وكان المهاجرون إلى المدينة منذ قدومهم يتحينون أوقات الصلاة من غير دعوة . وكان بلال ينادى : الصلاة جامعة ، فقال بعضهم نتخذ ناقوسا . وقال البعض : بل نتخذ بوقاً ، وقال عمر : نرسل رجلا ينادى بالصلاة ، وقال آخر ، نوقد ناراً ونرفعها ليراها الناس فيقبلوا ، ورأى بعضهم الأذان فجاء الوحى باستحسان الآذان .

تحـــدى اليهود

ولما ظهرت قوة الإسلام بالمدينة وجد كبار اليهود على النبي وطعنوا عليه . وكان مالك بن الصلت من أحبار اليهود وكان بديناً سميناً ويبغض النبي . وقد حصل على كثير من أموال اليهود باسم الشريعة . فحضر يوماً مجلس النبي فقال له : أنشدك بالذى أنزل التوراة على موسى هل تجد فيها أن الله يبغض الجسد السمين ؟ فغضب مالك وقال: ماأنزل الله على بشر من شيء (يريد بذلك تكذيب النبي فكفر بموسى فى جملة قوله) فقال له اليهود : ماهذا الذى قلته ؟! فقال : إن محمداً أغضبنى فقلت ذلك . فنزعوه من رياسة دينهم وجعلوا مكانه كعب بن الأشرف .

ومر يوماً شأس بن قيس على الأوس والخزرج وهم مجتمعون يتحدثون فغاظه مارأى من ألفتهم بعد ماكان بينهم من العداوة . فقال لنفسه : قد اجتمع بنو قَيْلة . والله مالنامعهم إذا اجتمعوا من قرار . وذهب فأوعز إلى فتى من اليهود فذهب وجلس مع الأوس والخزرج وذكر أيام حروبهم . وأنشد ماكانوا يتقاولون من الأشعار فقال الخزرج : قال شاعرنا كذا . وقال الأوس : قال شاعرنا كذا . وتنازعوا ثم تواعدوا على المقاتلة وقاموا إلى السلاح وتصافوا للحرب . وبلغ النبي ذلك ، فخرج إليهم فيمن كان معه من المهاجرين وهو يقول : الله الله : اتقوا الله . أبدعوى الجاهلية (أى أتقاتلون بدعوى الجاهلية) وأنا بين أظهركم بعد أن هداكم الله إلى الإسلام وقطع به عنكم أمر الجاهلية . واستنقذكم من الكفر وألف به بينكم . فعرف القوم أنها نزغة من الشيطان . فثابوا إلى الرشد وبكى الجميع وأقبلوا يتعانقون ويحيطون بالنبي ونزل القرآن بقوله للأنصار « يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا

فريقاً من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين . وكيف تكفرون وأنتم تتلى عليكم آيات الله وفيكم رسوله . ومن يعتصم بالله فقد هدى إلى صراط مستقيم . ياأيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون . واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا . واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً . وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها »

وجاء النبي يهوديان فسألاه عن أعظم شهادة فى كتب الله فأنزل الله عليه قوله « شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائماً بالقسط »

وجاءه رهط منهم فقالوا : أنسب لنا ربك . فقرأ « قل هو الله أحد ، الله الصمد ، لم يلد ، ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحد »

وأتاه الحصين بن سلام (بفتح اللام . وسماه النبي بعد إسلامه عبد الله) وكان من يهود بنى قينقاع . وكان النبي فى بيت أبي أيوب وسمع ابن سلام قوله : أيها الناس أفشوا السلام ، وصلوا الأرحام ، وأطعموا الطعام . وصلوا بالليل والناس نيام تدخلوا الجنة بسلام فقال ابن سلام لنفسه : والله إنه لقديس وآمن ولم يجهر بإيمانه . ورجع فأخبر أهل بيته فأسلموا ولم يعلم بذلك أحد . بعد هذا حضر جماعة من اليهود مجلس النبي ، فكان من قوله لهم : يامعشر اليهود اتقوا الله الذى لا إله إلا هو ، إنكم لتعلمون أنى رسول الله حقاً وأنى جئتكم بحق فأسلموا . قالوا : ما نعلم ، قال : فأى رجل منكم ابن سلام ؟ قالوا : ذاك سيدنا وابن سيدنا وأعلمنا وابن علمنا . قال : أفرأيتم إن شهد هذا أنى رسول الله أن تؤمنوا ؟ قالوا : نعم ، وبعثوا وراء ابن سلام فحضر . فقال النبي : أما تعلم أنى رسول الله ، تجدونني فى التوراة ، أخذ الله ميثاقكم أن يؤمن بى ويتبعنى من أدركنى منكم ؟ قال ابن سلام : بلى ، فثار عليه اليهود وقالوا :

كذبت، أنت شرنا وابن شرنا . قال ابن سلام : فنظرت فيه فتبينت أن وجهه ليس بوجه كذاب فصدقت به وآمنت، وقلت لليهود إنكم قوم بهت (بضم الباء والهاء اى تواجهون الناس بالباطل) أهل غدر وكذب ، إنكم لتعلمون أنه النبي الذى تجدون صفاته فى التوراة. وعن أبى رقبة التميمى قال: أتيت النبى فلما رأيته قلت هذا نبى الله بلا شك وأسلمت. وجاءه يهود فقالوا : كيف تقول إنك على ملة ابراهيم وأنت تأكل لحوم الإبل ؟ فقرأ آية « كل الطعام كان حلا لبنى إسرائيل إلا ما حرم إسرائيل على نفسه » وقال : هل تعلمون أن إسرائيل (وهو يعقوب) مرض مرضاً شديداً وطال سقمه فنذر إن شفاه الله من سقمه ليحرمن أحب الطعام والشراب إليه . وشفى فكان أحب الطعام إليه لحم الإبل وأحب الشراب إليه ألبانها فحرمها ومنعها على نفسه وكانت حلا قبله ، وأخذتم ذلك عنه .

وجاءه جماعة من الأحبار يريدون منه الحكم على شريف وشريفة منهم قد زنيا وهم محصنان فدعا بالشهود وحكم عليهما بالرجم . فأنكروا عليه ذلك. فقال : أتعرفون شابا أبيض أمرد أعور يسكن فدكا (اسم بلد) يقال له ابن صوريا ؟ قالوا : نعم وهو أعلم يهودى على وجه الأرض بما أنزل الله : ورضوا به حكماً ، فلما حضر قال له النبى : أنشدك الله الذى لا إله إلا هو الذى أنزل التوراة على موسى وفلق البحر ورفع فوقكم الطور وأنجاكم وأغرق فرعون وظلل عليكم الغمام وأنزل عليكم المن والسلوى . والذى أنزل عليكم كتابه وحلاله وحرامه هل تجدون فيه الرجم على الزانى المحصن قال : نعم . وتشهد ، فوثب عليه سفلة اليهود وآذوه .

المنـــافقون

وكان حول النبي أكثر من ثلثمائة من الأوس والخزرج منافقين يتظاهرون بالإسلام وهم على دين قومهم . وإنما حملهم على الظهور بالإسلام تقية القتل ومطاوعة إجماع القوم ، ومنهم عبد الله بن أبي سلول وكان من أهل المدينة وقد عزموا على تتويجه ملكا عليهم (لأن الأوس والخزرج من آل قحطان) وأبطل ذلك مجيء الإسلام . فلما انتقل النبي من قباء إلى المدينة عرج على عبد الله بن أبي بن سلول بقصد النزول عنده تألفاً له فاستقبله لدى باب الدار وقال له : إذهب إلى الذين دعوك وأنزل عليهم . فقال سعد بن عبادة على مسمع من عبد الله : يارسول الله لا تجد فى نفسك من قوله . فقد قدمت علينا والخزرج تريد أن تملكه . فلما رد بالحق الذى أعطاك الله شرق، فذلك الذى فعل به مارأيت ، فعفا عنه .

ومر النبي على عبد الله بن أبي بن سلول فى جماعة ، فقال : لقد آذانا ابن أبي كبشه (لقب زوج حليمة المرضعة) فى هذه البلاد فسمع قوله عبد الله بن عبد الله بن أبي (صحابي) فاستأذن النبي أن يأتيه برأسه ، فقال النبي : لا ، ولكن بر أباك .

ومر على مجلس فيه ابن سلول وأخلاط من المسلمين والمشركين واليهود فثار غبار من مشى الحمار فخمر (غطى) ابن أبي وجهه بردائه وقال : لاتغبروا علينا — وسلم النبي ونزل إليهم ودعاهم إلى الله وقرأ عليهم القرآن . فقال ابن أبي : أيها المرء إنه لا أحسن مما تقول إن كان حقاً فلا تؤذنا به فى مجالسنا. إرجع إلى رحلك فمن جاءك فاقصص عليه . فقال عبد الله بن رواحة (مسلم) بلى يارسول الله فاغشنا به فإنا نحب ذلك . واستب (تسابّ) المسلمون

والمشركون واليهود حتى كادت تقع بينهم حرب ، فلم يزل النبي يخفضهم حتى سكتوا . ثم ركب وسار . فدخل على سعد بن عبادة . فقال : ياسعد ألم تسمع ما قال أبو حباب (يعنى ابن أبي) قال كذا وكذا . فقال سعد : يا رسول الله اعف عنه واصفح . فوالذى أنزل عليك الكتاب لقد شرق ابن أبي بما جئت به . فعفا النبى عنه .

وبالجملة فقد لقى النبي كثيراً من شديد أذى اليهود والمنافقين فى المدينة . ولكنه بالنسبة لأذى أهل مكة قليل جداً حيث كان فى المدينة فى غاية من العزة والمنعة والقوة .

المغازى الاسلامية

نهى القرآن عن القتال فى مواضع كثيرة لقلة عدد المسلمين فى مكة ، حتى لقد سأله بعض من اشتد به الأذى من أصحابه أن يأذن لهم بالقتال فامتنع وقال : كفوا أيديكم فانى لم أؤمر بقتال . فلما هاجروا إلى المدينة ورمتهم العرب قاطبة عن قوس وتحرشوا بهم ، ولم يأذن لهم النبي كانوا فى حذر يتوقعون الأذايا حتى ممن كانوا حولهم . فكانوا لا يبيتون ولا يصبحون إلا فى السلاح . وكانت قد قويت شوكتهم وائتلافهم فى المدينة وعرفوا ملجأ يرجعون إليه — فأذن لهم بالقتال بقوله تعالى « أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وأن الله على نصرهم لقدير . قاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم » فكان الناس فى نظر الدين ثلاثة (١) كفار محاربون وجب قتالهم (٢) أهل عهد من غير عقد الجزية صولحوا على أن لا يحاربوا النبي ولا يظاهروا عليه عدواً ، وهؤلاء مع كفرهم آمنون على دمائهم وأموالهم (٣) أهل ذمة عقدت عليهم الجزية . أما من دخل الاسلام تقية وهم المنافقون ، فان النبى أمر أن تقبل منهم علانيتهم

وتترك سرائرهم إلى الله ، وترك بلا وحى — أمر الخروج إلى القتال — إلى اختيار النبى وصحابته . وفى المغازى السرايا التى لم يقع بها حرب ولا حصل المسلمون منها على نفع توحيه النفوس إلى القتال وتشويقها إلى الغزو وتذيبها إلى الفوز والانتصار على مافى ذلك من إرهاق العرب وتخويفها بقوة المسلمين وكثرة عددهم واتحاد كلمتهم .

سرية الساحل

وبدأ النبى غزواته بالسهل الممكن وهو عير قريش رجاء أخذ مافيها ليكون ذلك سبب افتتاح القتال . ولتقوى قلوب أصحابه على المعارك شيئاً فشيئاً . ولينتفعوا بما يحصل من الغنيمة . فبعث عمه حمزة بن عبدالمطلب أميراً على ثلاثين رجلا كلهم من المهاجرين لتطمئن نفوس الأنصار . وليكون هو لم يخرج بهم عما اشترطوه وقت البيعة من أنهم إنما يمنعونه فى دارهم . فخرج حمزة وسريته ليعترضوا عيراً لقريش جاءت من الشام تريد مكة . وكان فى هذه العير أبو جهل فى ثلاثمائة راكب . فلما بلغت العير ساحل البحر من ناحية العيص وتواجه الفريقان وتصافا للقتال ، جاءهم مجدى بن عمرو الجهنى (وكان مصاهراً للمسلمين فى قريش) وحال بين الفريقين ومنع القتال فانصرف القوم ولم تقع بينهم حرب . ولما عادوا وأخبروا النبى بعدد قريش قال فى مجدى : إنه ميمون النقيبة مبارك الأمر .

سرية بطن رابغ

وجهز النبى سرية عبيدة بن الحارث بن المطلب بن عبد مناف فى ثمانين من المهاجرين إلى جيش يبلغ المائتين مع أبى سفيان بن حرب فتلاقيا فى بطن

رابغ وكان المسلمون فى طريق صخرية مرتفعة وجماعة قريش على الطريق المعتاد. وشد المسلمون لقتالهم. فسبقتهم قريش وأسرعوا السير، ورأى سعد ابن أبي وقاص أنهم سيفوتونهم هرباً فتقدم أصحابه ونثر كنانته ورمى بما فيها وكان عشرين سهما مافيها سهم إلا جرح إنسانا أو دابة. ونجت قريش وعاد المسلمون ولهم قوة وشوكة، وتظاهر من قريش المقداد بن عمرو وعتيبة بن غزوان بالتقصير فتأخرا عن أصحابهما وكانا مسلمين وخرجا ليصلا إلى النبى فلحقا بالمسلمين ورجعا معهم إلى المدينة.

سرية الخرار

وأمر النبى بخروج سعد بن أبي وقاص إلى الخرار (بتشديد الراء الأولى مفتوحه واد فى الحجاز ينتهى إلى الجحفة) فى عشرين رجلا من المهاجرين يعترض عيراً لقريش. فخرجوا على أقدامهم ووصلوا الخرار فوجدوا العير قد مرت قبل قدومهم بيوم فرجعوا.

غزوة الأبواء

خرج النبى فى ستين راكباً يريد عير قريش فى الأبواء وولى على المدينة سعد بن عبادة ولواؤه يومئذ فى يد حمزة بن عبدالمطلب. ففاتته العير، ولقى بنى ضمرة بن بكر (بطن من كنانة) فتقدم إلى النبى سيدهم مخشى بن عمرو الضمرى وطلب إليه الصلح، فأجابه على أنهم لايغزونه ولا يكثرون عليه جمعاً ولا يعينون عليه عدواً، وإذا دعاهم لنصره أجابوه. وكتب بذلك بينهم كتاب فيه: بسم الله الرحمن الرحيم، هذا كتاب محمد رسول الله لبنى ضمرة بأنهم آمنون على أموالهم وأنفسهم، وأن لهم النصر على من رامهم بسوء

بشرط أن لا يحاربوا ضد دين الله ما بلّ بحرصوفة ، وأن النبي إذا دعاهم لنصره أجابوه ، وعليهم بذلك ذمة الله ورسوله . ثم انصرف راجعاً إلى المدينة .

غزوة بواط

وخرج النبي فى مائتين من المهاجرين إلى بواط (بفتح الباء وضمها جبل من جبال جهينة بقرب ينبع) يعترض بها عيراً تحمل تجارة لقريش فيها مائة رجل وعليهم أمية بن خلف وترك على المدينة سعد بن معاذ . وكان لواؤه بيد سعد بن أبي وقاص ، حتى إذا جاء بواطاً وجد العير قد سبقته فرجع .

غزوة العشيرة

وبلغ النبي أن عير قريش ستصدر من مكة إلى الشام بتجارة جمعت قريش فيها أموالها تحت إمرة أبي سفيان بن حرب ومعه تسعة وثلاثون رجلا فيهم مخرمة بن نوفل وعمرو بن العاصى . فخرج النبي فى مائتى رجل من المهاجرين إلى العشيرة (تصغير عشرة) وترك على المدينة أبا سلمة بن عبد الأسد المخزومى . ولواؤه بيد حمزة بن عبد المطلب . فوجد العير قد مضت . وفى هذه الغزوة صالح بنى مدلج بن كنانة حلفاء بنى ضمرة ، ورجع ولم يلق حرباً .

غزوة سفوان

وأغار كرز بن جابر الفهرى (أسلم) على سرح المدينة (الإبل والمواشى) فخرج النبى وراءه وخلى على المدينة زيد بن حارثة . وكان لواؤه بيد على ابن أبي طالب . فسار حتى بلغ سفوان (موضع من ناحية بدر) وفاته كرز ابن جابر فرجع .

سرية نخـــلة

وجهز النبى عبدالله بن جحش (أول من سمى بأمير المؤمنين) فى ثمانية من المهاجرين ، وكتب له كتابا أمره أن لاينظر فيه حتى يسير يومين ، ويمضى لما أمره به ولا يكره على مرافقته أحداً من أصحابه ، فلما سار يومين فتح عبدالله الكتاب فقرأ فيه : إذا نظرت فى كتابى هذا فامض حتى تنزل نخلة (بين مكة والطائف) فترقب بها قريشاً وتعلم لنا من أخبارهم . فأخبر أصحابه أنه نهاه أن يستكره أحداً منهم ، فلم يتخلف أحد . وسلك طريق الحجاز حتى إذا كان بنجران فقد سعد بن أبى وقاص وعتبة بن غزوان بعيرهما الذى كانا يتعاقبان عليه (يتناوبان ركوبه) فتخلفا فى طلبه . ومضى عبد الله وأصحابه فنزلوا نخله . فمرت بهم عير قريش تحمل زبيباً وأدما (جلوداً) وتجارة من تجارات قريش ومعهم عمرو بن الحضرمى وعثمان ونوفل ابنا عبدالله المخزوميين والحكيم بن كيسان فنزلوا قربهم ، فهابهم المهاجرون ، فأوعز عبدالله بن جحش إلى أحد أصحابه فحلق رأسه وأشرف عليهم فرأوه فاطمأنوا ، وقالوا عمار معتمرون (حجاج) لابأس علينا منهم ، وقيدوا رحالهم وسرحوها ، وصنعوا طعاماً . وتشاور المسلمون ، فقالوا : نحن فى آخر يوم من رجب أو فى أول يوم من شعبان (أى شكوا فى يومهم أهو من الشهر الحرام أم لا) فإن قاتلناهم هتكنا حرمة الشهر ، وإن تركناهم دخلوا حرم مكة فامتنعوا به منا ، وأخيراً شجعوا أنفسهم وأجمعوا على قتالهم ، فجمعوا عليهم ، ورمى عبدالله بن واقد عمرو بن الحضرمى بسهم فقتله واستأسروا عثمان بن عبدالله المخزومى والحكيم بن كيسان وفر الباقون واستاق المسلمون العير (وهى أول غنيمة فى الإسلام) ورجعوا بها إلى النبى وأخبروه الخبر ، فقال لهم : ماأمرتكم بقتال فى الشهر

الحرام . فسقط فى أيدى القوم وظنوا أنهم قد عصوا وعنفهم إخوانهم فيما صنعوا وقالت قريش : إن محمداً سفك الدماء ، وأخذ الأموال فى الشهر الحرام وبعثت تعير النبى بفعل أصحاب السرية . فنزل القرآن يقول : يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه ؟ قل قتال فيه كبير ، وصد عن سبيل الله ، وكفر به والمسجد الحرام ، وإخراج أهله منه أكبر عند الله ، والفتنة (أى الكفر) أكبر من القتل ، فأيد بذلك فعل السرية . وبعثت قريش فى فداء عثمان بن عبد الله المخزومى والحكم بن كيسان فقال النبى : لا نفديكموهما حتى يقدم صاحبانا (يعنى سعد بن أبى وقاص وعتبة بن غزوان المتخلفين فى طلب بعيرهما) وإن تقتلوهما نقتل صاحبيكم .

وقدم سعد وعتبة بعدها بأيام ، وأسلم الحكم بن كيسان وأقام بالمدينة . ولحق عثمان بن عبد الله بمكة .

فرض الصيام والزكاة

وفى هذه الأيام حولت القبلة إلى الكعبة بعد الاتجاه إلى بيت المقدس . وفرض صيام رمضان وزكاة المال وسنت زكاة الفطر .

وفد نصارى نجران

ووفد على النبى وفد نصارى نجران (نجران بلد كبير على سبع مراحل من مكة إلى جهة اليمن تشمل ثلاثاً وسبعين قرية) وقدموا المدينة وعليهم ثياب الحبرات وأردية الحرير وخواتم الذهب ومعهم هدية وهى بسط فيها تماثيل ومسوح ، فقال لهم النبى : أما هذه البسط فلا حاجة لى فيها ، وأما هذه

المسوح فإن تعطونيها آخذها . فقالوا نعم نعطيكها

ورأى فقراء المسلمين زيهم وزينتهم فتشوفت نفوسهم إلى مثلها فنزل قوله تعالى « قل أؤنبئكم بخير من ذلكم ، للذين اتقوا عند ربهم جنات تجرى من تحتها الأنهار ، فيها أزواج مطهرة ورضوان من الله ، والله بصير بالعباد » واستأذنه النصارى فى الصلاة بالمسجد فأذن لهم فدخلوا إلى مسجد النبى . وأراد الناس منعهم فقال النبي : دعوهم (تألفاً لهم ورجاء لإسلامهم) .

فلما فرغوا من صلاتهم أتوا النبي فعرض عليهم الإسلام وتلا عليهم شيئا من القرآن . فامتنعوا قائلين : إنا مسلمون . قال : كذبتم يمنعكم من الإسلام ثلاث : عبادتكم الصليب ، وأكلكم الخنزير ، وزعمكم أن لله ولدا .

قالوا : فهل رأيت مثل المسيح أو أنبئت به ، فغفا غفوة ونطق بآية « إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب » قال أحدهم : بل هو الله . فغفا النبي ثانية ونطق بآية « لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم » الآية . وبآية « فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ، ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين » .

(قالوا : إن الله هو المسيح . وليس لهم سند على ذلك سوى الادعاء بأن معنى ذاك ورد بالإنجيل وإن بعد قبوله فى العقل . وقال : إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم ، ومكان قوله من الاستقرار فى العقل مكانه . إذ لو كان الله هو المسيح لكان حادثا فى الجسمانية وفى تقلبه فى صور التكوين وتحت حكم الزمان ، ولكن هذا فى نظرهم غير قوى ، فلم يبق دليل من نوع الحس لمن

لا يؤمن بالغيب على صدق أحد القولين إلا أن يقف النصارى موقف المستنصر بالإله السماوى الأرضى على مخاصمهم فيه ، ويقف النبي مبتهلا إلى الإله الواحد بنصره على معارضه فى اعتقاد وحدته وتنزيهه عن مشابهة الحوادث

فقالوا : يا أبا القاسم نرجع فننظر فيما طلبت غداً وخلا بعضهم إلى بعض فقالوا : نرى أن الرجل على ثقة من قوله . فان لاعنتموه استؤصلتم (أخذتم عن آخركم) فوادعوه وصالحوه وارجعوا إلى بلادكم .

وأصبحوا فى انتظاره وأقبل ومعه على بن أبى طالب وولداه حسن وحسين وأمهما فاطمة . فقال الأسقف : إنى لأرى وجوها لو سألوا الله أن يزيل لهم جبلا لأزاله ، فلا تباهلوهم فتهلكوا . فأقبلوا يعتذرون إليه ، وصالحوه على الجزية وكتب لهم كتاباً وأرسل معهم أبا عبيدة عامر بن الجراح استئماناً لهم وقال : هذا أمين الأمة ، وسار أبو عبيدة معهم إلى موضع أمنهم .

غزوة بدر

تقدم أن صدرت عير قريش تحمل تجارة واسعة بإمرة أبى سفيان بن حرب وخرج النبي يعترضها . وبلغ بمن معه العشيرة فوجد العير قد فاتته . فكان يترقب عودتها ، ونما إليه خبر مفارقتها الشام فقال لأصحابه : هذه عير قريش وأموالهم فاخرجوا إليها لعل الله أن ينفلكموها . ومن كان ظهره (أى ما يركبه) حاضراً فليركب معنا . ولا ينتظر من كان ظهره غائباً . وولى على المدينة أبا لبابة بن عبد المنذر الأوسى ، واستعمل على الصلاة بالناس ابن أم مكتوم (الأعمى) وتخلف سعد بن عبادة لأنه كان مريضاً بلدغة حية ، وعثمان ابن عفان لتمريضه زوجته رقية (بنت النبى) وحجز النبي لكل منهم سهمه من

الغنيمة بعد حضوره ، وتخلف أيضاً جماعة أمر النبي بتخلفهم بالمدينة ، وخلف على قباء وأهل العالية عاصم بن عدى بسبب شيء كان قد بلغه ، وعقد لواء أبيض ودفعه لمصعب بن عمير ، وجعل أمامه رايتين سوداوين إحداهما مع على بن أبي طالب والأخرى مع سعد بن معاذ ، ثم ضرب معسكره ببئر أبي عتبة (على ميلين من المدينة) واستعرض أصحابه فكانوا ثلاثمائة وثلاثة عشر ففرح ولبس عدة حربه . وقال : اللهم إنهم حفاة فاحملهم ، وعراة فألبسهم ، وجياع فأشبعهم ، وعالة فأغنهم من فضلك . ثم سار بالجيش فبلغ الروحاء (موضع به بئر على نحو أربعين ميلا من المدينة)

وكان أبو سفيان بن حرب وهو قادم فى طريقه بعير قريش لقى رجلا فأخبره أن محمداً كان قد عرض له ولغيره ، وأنه بأصحابه ينتظر رجوع العير فسار أبو سفيان حتى قرب من أرض الحجاز وهو يتجسس الأخبار ويسأل الركبان ، فسمع أن محمداً استنفر أصحابه له ولعيره ، فخاف خوفاً شديداً . ودفع أجراً إلى ضمضم بن عمرو الغفارى ليأتى مكة ويجدع بعيره ويشق قميصه ويحول رحله ويستنفر قريشاً ويخبرهم أن محمداً قد عرض هو وأصحابه لعيرهم (وكانت هذه العير فيها أموال قريش)

وقبل قدوم ضمضم بثلاث ليال رأت عاتكة بنت عبد المطلب (أسلمت) فى نومها رؤيا أفزعتها ، فاستدعت اليها أخاها العباس بن عبد المطلب . وقالت له : رأيت الليلة يا أخى رؤيا أخافنى ، فأنا أخشى أن يدخل على قومك منها شر ومصيبة ، فاكتم عنى ما أحدثك ولا تذكره فاذا سمعت قريش بذلك أسمعونا ما نكره . رأيت راكباً على بعير وقف بالأبطح وصرخ بأعلى صوته : ألا انفروا يا آل غدر إلى مصارعكم بعد ثلاث ودخل بالبعير الى المسجد

والناس يتبعونه فانتصب على ظهر الكعبة وصرخ بمثلها . واعتلى به البعير على رأس أبي قبيس (الجبل) فصرخ بمثلها ، ثم أخذ صخرة وأرسلها فأقبلت تهوى حتى إذا كانت بأسفل الجبل ارفضت (تكسرت) فما بقي بيت فى مكة إلا دخله منها فلقة (قطعة) فقال العباس : إن هذه لرؤيا عظيمة فاكتميها ولا تذكريها لأحد . وخرج فلقى الوليد بن عتبة ، وكان صديقاً له فذكر له الرؤيا واستكتمه ، فذكرها الوليد لأبيه ، فتحدث بها وفشا التحدث بها . وأصبح العباس ليطوف بالكعبة وثم أبو جهل بن هشام فى رهط فى قريش يتحدثون برؤيا عاتكة . فقال أبو جهل للعباس : يابنى عبد المطلب متى حدثت فيكم النبية ؟ قال العباس : وماذاك ؟ قال الرؤيا التى رأتها عاتكة . أما رضيتم يابنى عبد المطلب أن يتنبأ رجالكم حتى تتنبأ نساؤكم ؟ قد زعمت عاتكة أن رجلا يقول : انفروا بعد ثلاث . فستربص بكم هذه الثلاث . فان يكن حقا ماتقولون فيكون . وإن تمض الثلاث ولم يكن من ذلك شيء كتبنا إليكم كتاباً أنكم أكذب بيت فى العرب : فقال العباس : أنت منبته ياجبان فان الكذب فيك وفى أهل بيتك ، وقام الناس بينهما ورجع العباس فلقى من عاتكة لوماً شديداً على إفشاء حديثها وما أمسى المساء حتى وافينه نساء عبد المطلب يقلن له : أقررتم هذا الخبيث الفاسق أن يقع فى رجالكم حتى تناول النساء وأنت سامع ولم يكن عندك غيرة لشيء مما سمعت . فقال العباس : وأيم الله لأتعرضن له وإن عاد لأقتلنه . وغدا فى اليوم التالى يريد التعرض له ودخل المسجد وبصر بأبى جهل فمشى إليه وإذا بأبى جهل يعدو إلى باب المسجد على صراخ ضمضم بن عمرو الغفارى على بعيره ببطن الوادى وقد جدع (قطع) أنف بعيره وأذن وحول رحله وشق قميصه وهو يقول : اللطيمة اللطيمة

(أدركوا اللطيمة وهى العير) مع أبى سفيان ، عرض لها محمد فى أصحابه وأرى أن لاتدركوها . فشغل هذا الخبر جميعهم . وتجهز الناس سراعا وفزعوا أشد الفزع من رؤيا عاتكة . وقالوا أيظن محمد وأصحابه أن تكون كعير ابن الحضرمى ، والله ليعلمن غير ذلك . فكانوا بين رجلين إما خارج وإما باعث مكانه رجلا ، وأعان قويهم ضعيفهم . وقام أشراف قريش يحثون عامتهم على الخروج . ونادى سهيل بن عمرو : أتاركون أنتم محمداً والصبأة من أهل يثرب يأخذون أموالكم ؟ من أراد مالا فهذا مالى ومن أراد قوة فهذى قوتى ونهض القوم ولم يتخلف إلا أبو لهب خوفاً من رؤيا عاتكة . وقال : رؤيا عاتكة كأخذ باليد (أى ملموسة) وبعث مكانه العاصى بن هشام بن المغيرة استأجره بأربعة آلاف درهم كانت له عليه .

واتفق أن كان سعد بن معاذ الأنصارى وسيد بنى الخزرج قد قدم مكة معتمراً ونزل على أمية بن خلف (لأنه كان ينزل عليه فى المدينة) فقال سعد لأمية : أنظر لى ساعة لأطوف البيت . فقال أمية إذا انتصف النهار وبينما سعد يطوف أتاه أبو جهل فقال : من هذا ؟ قال أنا سعد بن معاذ قال : أتطوف بالكعبة آمناً وقد آويت محمداً وأصحابه وزعمتم أنكم تنصرونهم وتعينونهم ؟ أما والله لولا أنك مع أبى صفوان (يعنى أمية) مارجعت إلى أهلك سالماً ، فلم يتركها له سعد وتلاحيا (تشاجرا) وسعد يرفع صوته فجعل أمية يسكته ويقول : لاترفع صوتك على أبى الحكم فانه سيد أهل الوادى . فقال سعد لأمية : إليك عنى فقد سمعت النبى يقول : إنك ستقتل . قال أمية : إياى يعنى ؟ قال سعد نعم ، قال : بمكة ؟ قال لاأدرى قال : إنه والله ما كذب محمد . وكاد يحدث (يبول) فى ثيابه فزعاً ، وذهب سعد ، ورجع أمية إلى

امرأته فقال : ماتعلمين ماقال أخى اليثربى ؟ (يعنى سعد بن معاذ) قالت : وما ذاك ؟ قال : زعم أن محمداً أخبره بأنه قاتلى : قالت والله ما كذب محمد ، فلما جاءه الصريخ ذكرته امرأته بما قال ، فقال : لا أخرج أبداً فأتاه عتبة بن أبى معيط بإغراء من أبى جهل وهو جالس مع قومه ومع عتبة بجمرة فيها بخور ووضعها بين يديه وقال : استجمر يا أبا على ، فانما أنت من النساء ، فخرج معهم على نية الرجوع من الطريق وكذلك كان عزم بعض كبار قريش ، وخرجوا فى تسعمائة وخمسين يحمل لواءهم السائب بن يزيد (أسلم وهو الأب الخامس للامام الشافعى) ومعهم المغنيات يضربن بالدفوف وينشدن بهجاء المسلمين وجميعهم فى غاية البطر والخيلاء .

أما أبو سفيان فقد كان بعد ذهاب ضمضم شديد الحذر فأخذ يسير بالعير على طريق الساحل وجد فى السير ففات طريق يثرب . ولما اطمأن أرسل إلى قريش يأمرهم بالرجوع ، فوصلهم رسوله وهم بالجحفة فامتنع أبو جهل وقال : والله لا نرجع حتى نحضر بدراً فنقيم فيه ثلاثة أيام وننحر الجزر ونطعم الطعام ونسقى الخمر وتعزف علينا القينات بالمعازف وتسمع العرب بمسيرنا فتهابنا أبداً .

وسمع هذا الأخنس بن شريق الثقفى (أسلم) وكان حليفاً لبنى زهرة . فخلا بأبى جهل ، وقال له : إنه ليس بينى وبينك أحد ، أترى محمداً يكذب ؟ قال أبو جهل : ما كذب محمد قط وكنا نسميه الصادق الأمين ، لكن إذا كانت فى بنى عبد المطلب السقاية والرفادة والمشورة ثم تكون فيهم النبوة ، فأى شىء يكون لنا ونحن معهم كفرسى رهان ؟ فرجع الأخنس إلى بنى زهرة وقال لهم : يا بنى زهرة قد نجى الله أموالكم وخلص لكم صاحبكم (يعنى

مخرمة بن نوفل لأنه كان فى عير أبى سفيان) وإنما نفرتم لذلك ، فارجعوا فانه لا حاجة لكم أن تخرجوا فى غير منفعة ودعوا ما يقول هذا (يعنى أباجهل) فرجعوا جميعاً ، وأراد بنو هاشم الرجوع فاشتد عليهم أبو جهل وساروا فنزلوا بالعدوة القصوى بقرب الماء .

وفى البرحاء بعث النبى برجلين يتجسسان أخبار عير أبى سفيان ، فمضيا حتى نزلا بدراً وأناخا إلى تل قريب من الماء وأخذا يستقيان فسمعا جارية تقول لأخرى : إن أتانا العير غداً أو بعد غد أعمل لهم (أى أخدمهم) فأقضيك الذى لك ، فانطلقا وأخبرا النبى بما سمعا ، فقال النبى لأصحابه يستشيرهم : إن الله وعدكم إحدى الطائفتين إما العير وإما قريش ، فما تقولون ؟ العير أحب إليكم أم النفير ؟ فقام أبو بكر وتكلم فأحسن ، وقام عمر وقال فأحسن ، فقال النبى : أيها الناس أشيروا على (وهو يريد الأنصار لأن مقتضى مبايعة العقبة أنهم يمنعونه وينصرونه فى ديارهم) ولما أعاد طلب الاستشارة قام سعد ابن معاذ (وهو من الأنصار كأبى بكر من المهاجرين) فقال : والله لكأنك يا رسول الله تريدنا ، قال النبى : أجل ، قال سعد : قد آمنا بك وصدقناك وشهدنا أن ما جئت به الحق وأعطيناك على ذلك عهوداً ومواثيق بالسمع والطاعة ، ولعلك تخشى أن يكون الأنصار ترى أن لا ينصروك إلا فى ديارهم ؟ وأقول عن الأنصار وأجيب عنهم : امض يا رسول الله لما أمرت وصل حبال من شئت وسالم من شئت وعاد من شئت وخذ من أموالنا ما شئت ، فما أخذت منا أحب الينا مما تركت ، وصرنا نتبع أمرك ، والله إنك لو سرت بنا حتى برك الغماد لنسيرن معك ، ولو استعرضت بنا البحر فخضته لخضناه معك ما تخلف منا رجل واحد ، وما نكره أن نلقى عدونا وإنا لصبر

عند الحرب صدق عند اللقاء ، ولعل الله أن يريك منا ما تقر به عينك ، فسر على بركة الله فنحن عن يمينك وشمالك وبين يديك وخلفك ، ولسنا كالذين قالوا لموسى : إذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون . ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما متبعون ، فسر النبي بقوله ، وقال : سيروا على بركة الله وأبشروا فان الله وعدنى إحدى الطائفتين إما العير أو إما النفير ، وقد فاتت العير فلا بد من الطائفة الأخرى ، ووعد الله لا يخلف .

وسار النبي بصحابته فنزل قريباً من بدر ، وبعث على بن أبى طالب والزبير العوام وسعد بن أبى وقاص يتحسسون الأخبار فأتوا بغلامين لنبيه ومنبه بنى الحجاج ومعهما راوية . فقال لهما : النبي أخبرانى عن قريش ؟ قالا : إنهم وراء الكثيب (التل الرمل) قال : كم القوم ؟ قالا : كثير عددهم شديد بأسهم . قال : كم ينحرون (من الجزر) كل يوم ؟ قالا : يوماً تسعة ويوماً عشرة . فقال لأصحابه : القوم بين التسعمائة والألف . ثم قال للغلامين : ومن فيهم من أشراف قريش ؟ قالا : عتبة بن ربيعة وأبو البخترى بن هشام وحكيم ابن حزام ونوفل بن خويلد وزمعة بن الأسود وأبو جهل بن هشام والنضر ابن الحرث وسهيل بن عمرو . فقال النبي لأصحابه : هذه مكة قد ألقت إليكم أفلاذ (قطع) كبدها .

ونزلت قريش بالعدوة القصوى (العدوة جانب الوادى وحافته ، والقصوى البعيدة عن المدينة) ونزل المسلمون على كثيب أعفر (أبيض وأحمر) تسوخ فيه الأقدام وحوافر الدواب . وقد سبقتهم قريش إلى ماء بدر فأخذوه وحفروا القلب لأنفسهم ليجعلوا فيه الماء من الآبار المعينة . فأرسل الله مطراً سال به الوادى . فشرب المسلمون واتخذوا الحياض على

عدوة الوادى ، وأطفأ المطر الغبار ولبدت الأرض فثبتت عليها الأقدام وذعرت قريش وخافت ، وأصاب المسلمين نعاس بسبب تطامن نفوسهم . وطلع الصبح فنادى النبي للصلاة وجاء المسلمون من تحت الأشجار والجحف ليصلى بهم . وخطب فحض على القتال وفى ضمن قوله : إن الصبر فى مواطن البأس مما يفرج الله به الهم وينجى من الغم . وخرج يبادرهم إلى الماء فجاء أدنى ماء من بدر . فقال له الحباب بن المنذر بن الجموح : يارسول الله هذا منزل أنزلكه الله . لاتتقدم ولا تتأخر عنه ؟ أم هو الرأى والحرب والمكيدة ؟ قال : بل هو الرأى والحرب والمكيدة . وقال الحباب : إن هذا ليس بمنزل . فانهض بالناس حتى نأتى أدنى ماء من القرشيين .

(وإلى هنا ينتهى القسم الأول من تقسيم المؤلف رحمه الله ، ويتلوه القسم الثانى إن شاء الله)

الفهرست

كلمة لكريمة المؤلف ١
مقدمة المؤلف ٢
كلمة المؤلف ٣
مقدمة عامة عن العرب والجزيرة ٨
التاريخ القديم ـ حديث التاريخ ٢٥
مكة والتاريخ ٢٦
العصور الغابرة ـ ملوك مكة القدماء ٢٧
أجداد الرسول صلى الله عليه وسلم ـ عدنان ٢٩
معـــد ٣٠
نزار . . . مضر . . إلياس . . . ٣١
مدركة . . خزيمة ٣٢
كنانة . . النضر ٣٣
مالك . . فهر ٣٤
غالب . . لؤى ٣٥
كعب . . مرة ٣٦
حكيم . . قصى ٣٧
عبد مناف . هاشم ٤٠
عبد المطلب ٤٢
اكتشاف زمزم ٤٤
زواج عبد الله ٤٥

محمد صلى الله عليه وسلم — مولده ٤٦
إرضاعه ٤٧
تربية محمد ٤٩
أبو طالب ٥٣
شبوبة محمد ٥٥
متاجرة محمد لنفسه . . . متاجرته لخديجة ٥٦
زواج محمد بخديجة ٥٨
بناء الكعبة ٥٩
شغل محمد بنفسه ٦٠
مبدأ النبوة ٦١
مبدأ الوحى ٦٢
نزول الوحى ٦٣
أحوال الوحى . . . أول التكليف . . بدء الدعوة ٦٥
سير الدعوة ٦٦
إسلام ابى بكر . . . السابقون إلى الإسلام . . . ٦٧
إسلام عثمان — إسلام الزبير — إسلام عبد الرحمن بن عوف . ٦٨
إسلام سعد . . . إسلام طلحة وآخرين . . . ٦٩
الاقبال على الإسلام ٧٢
إبلاغ الدعوة إلى الأقربين ٧٣
إسلام حمزة ٨١
أذى قريش للمسلمين . . معارضة قريش للنبى . . . ٨٢
قضية الأعمى ٨٥
امتحان قريش للنبى ٨٦
أبو جهل والنبى . . . أذى قريش للنبى . . . ٨٧

النبي بوادى ركانة ٨٩
تعميم الدعوة ٩٠
الهجرة الأولى ٩١
الهجرة الثانية ٩٤
المسلمون فى الحبشة ٩٥
عمر بن الخطاب ٩٦
دخول ابى طالب الشعب . تحالف قريش ضد بنى هاشم . . ١٠٠
تمزيق صحائف المحالفة ١٠١
وفاة أبى طالب وخديجة ١٠٣
زواج النبي ١٠٤
حمية أبى لهب ١٠٥
النبي فى الطائف ١٠٦
الجن فى نخلة ١٠٨
دخول النبي مكة ١٠٩
ضماد بن ثعلبة . . . الطفيل الدوسى ١١٠
الإسراء ١١١
طلب النبي الاحتماء بالقبائل ١١٣
مبايعة العقبة الأولى ١١٦
مبايعة العقبة الثانية ١١٧
مبايعة العقبة الثالثة ١٢١
المؤاخاة بين المهاجرين وهجرتهم ١٢٣
مؤامرة قريش على قتل النبي وهجرته ١٢٦
دخوله صلى الله عليه وسلم بعائشه . . بناء مسجد قباء . . ١٣٥
المعراج . . . اختيار الآذان ١٣٧

تحدى اليهود ١٣٨
المنافقون ١٤١
المغازى الاسلامية ١٤٢
سرية الساحل . . . . سرية بطن رابغ . . . ١٤٣
سرية الخرار . . . . غزوة الأبواء . . . ١٤٤
غزوة بواط . . . . غزوة العشيرة — غزوة سفوان ١٤٥
سرية نخلة ١٤٦
فرض الصيام والزكاة . . . وفد نصارى نجران . . ١٤٧
غزوة بدر ١٤٩

DATE DUE

AFET LIB.
1982

J. Lib.
NOV 1984

297.63:H968nA:v.1:c.1
حسين ،محمد
النبي محمد، صلى الله عليه وسلم
AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES
01012313

American University of Beirut

V.1

297.63:H968nA v.1
حسين
:11

297.63
H968nA
v.1

297.63
H968n A
V.1
c.1